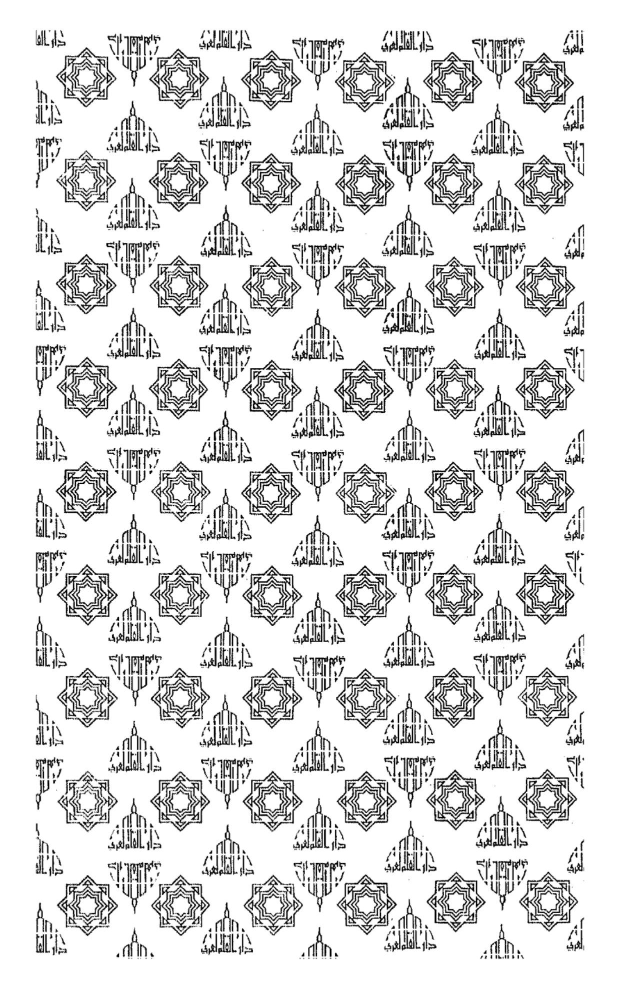
معارك عربية إسلامية خالدة

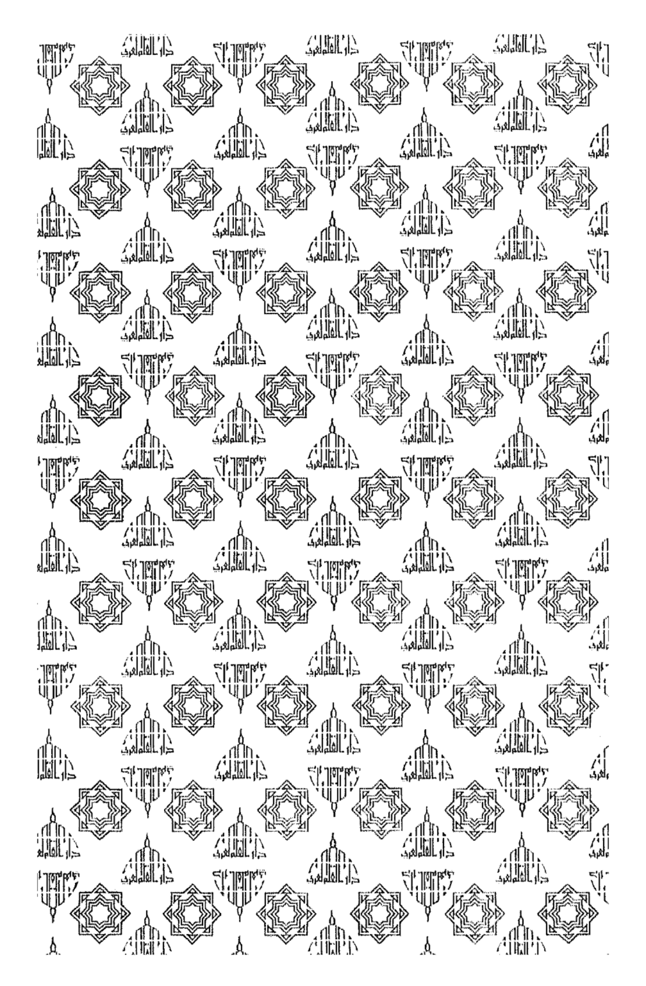
١٣ - معركة بلاط الشهداء

١٤ - معركة وادي الحجارة



دار القلم العربي


دار القلم العربي



مَعارك عَربيّة خَالدة

١٣

معركةُ بلاطِ الشهداءِ

إعـــداد

عبدالقادر الشيخ ابراهيم

دار القلم العربي



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1421 هـ - 2001 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

ص.ب :78 هاتف : 2213129 فاكس : 2212361 21 963+

البريد الالكتروني : E-mail : qalam_arabi@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

(معركةُ بلاطِ الشهداءِ)

استخلافُ عبدِ العزيز بنِ موسى على الأندلسِ ومقتلُهُ:

غادر الأميرُ موسى بنُ نُصَيرٍ جزيرةَ الأندلسِ إلى دمشقَ في صفر سنةَ خمسٍ وتسعين للهجرةِ المصادف شهرَ تشرينَ الأول سنةَ /٧١٣/ ميلادية، بعد أنِ استخلفَ على الأندلسِ ولدَهُ عبدَ العزيزِ بنَ موسى الذي ضَبَط أمورها، وسدَّ ثغورَها، وحمى حدودَها، وأقام العدلَ بين أبنائها، وافتتح مدائنَ كثيرةً مما كان قد بقيَ على أبيه منها، ولم تُتِحْ له الظروفُ أن يفتحَها، فكان عبدُ العزيزِ بنُ موسى خيرَ خَلَفٍ لأبيه، إلاّ أنَّ مدةَ حكمِهِ لم تطُلْ حيث قُتِلَ في ظروفٍ غامضةٍ، نذكرُ منها:

أنَّ سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ أوعزَ إلى أهلِ الأندلسِ أن يقتلوه بعد موتِ أبيه موسى بنِ نُصَير، ولعلَّ هذه الروايةَ مستبعدةٌ قليلاً لأمرينِ، الأولُ: أنَّ المقري ذكرها

في كتابه نفح الطيب، ومر عليها مرورا سريعا، ولم يناقشها أو يعلق عليها، فدل ذلك على عدم اهتمامه بها.

الثاني: أن الخليفة سليمان بن عبد الملك لم يكن ينقم عليه كما نقم على أبيه موسى، ولم يكن بينهما أي خلاف يدعو سليمان أن يوعز إلى الجند في الأندلس ليقتلوه، وفي ذلك يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه فجر الأندلس:

(وأما القول بأن الخليفة سليمان هو الذي أوعز بقتله فقول لا يجد ما يؤيده، لأن الخليفة لم يكن عاجزا عن عزله إن أراد، ولم يكن ليخشى ثورته بالجند لأن الجند كان مختلفا عليه، وليس بمعقول أن يكون حقد سليمان على عبد العزيز أشد من حقده على أبيه موسى.

ومصداق ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة من أن سليمان بن عبد الملك لما بلغه مقتل عبد العزيز بن موسى شق ذلك عليه)[1]

---

[1] فجر الأندلس، ص١٣١.

ويتابع الدكتور مؤنس قولَهُ: (وإلى إفريقيــــةَ كـــان أمرُ الأندلسِ وطنجةَ وكلِ ما وراءَ إفريقيةَ، وأمَـــرَهُ [1] سليمانُ فيما فعله حبيبُ بنُ أبي عبيدةَ، وزيادُ بنُ النابغــةِ من قتلِ عبدِ العزيزِ، بأن يتشدَّدَ في ذلــك، وأن يُقفِلَــهُما إليه ومَنْ شركهما في قتلِهِ من وجوهِ الناسِ.

ثم مات سليمانُ، فسرَّح عبيدُ اللهِ بن [2]يزيدَ والـــي إفريقيةَ على الأندلسِ الحرَّ بنَ عبــدِ الرحمــنِ الثقفــي، وأمَرَهُ بالنظرِ في شأنِ قتلِ عبدِ العزيزِ، مِمّا يُفهَمُ منــه صراحةً أنَّ الأمرَ دُبِّرَ بغيرِ علمِ الخليفةِ، وأنا له أســباباً أخرى لا تفصِحُ المراجعُ عنها)[3]

وقال في موضعٍ آخرَ: (وأقــربُ التفاســيرِ إلــى الصحة هو القولُ بأنَّ المسألةَ كانت نتيجةً لتدبيرٍ محكــمٍ بين محمدِ بنِ يزيدَ عاملِ إفريقيةَ لسليمانَ وبين حبيبِ بنِ

---

(1) المأمور هو محمدُ بنُ يزيدَ والي إفريقية لسليمان.

(2) لعله محمد بن يزيد المتقدم ذكره.

(3) فجر الأندلس.

أبي عبيدةَ ونفرٍ من الجندِ، وأنّ هؤلاءِ قرّروا قتلَهُ دون الرجوعِ إلى سليمانَ في الأمرِ، ومصداقُ ذلك ما يقولُهُ صاحبُ فتح الأندلسِ: (ثم اجتمعوا على أيّوبَ بنِ حبيبٍ اللخميِّ الذي قُتِلَ عبدُ العزيزِ بمشورتِهِ، مما يدل بوضوحٍ على أن الأمرَ تمَّ في الأندلسِ بعد أنِ استشير فيه الجندُ، وكان سليمان قد أوصى يزيدَ بأن يأخذَ آلَ موسى بنِ نصيرٍ وكلَّ من انتسبوا إليه حتى يقوموا بما بقي عليه وهو ثلاثمائةِ ألفِ دينارٍ، ولا يرفَعَ عنهمُ العذابَ فقبض على عبدِ اللهِ والي القيروانِ، فحبسه في السجنِ، ثم وصل البريدُ من قِبَلِ سليمانَ بأن يضربَ عنقَهُ.

وحكى الواقدي، قال: لمّا بلغ عبدَ العزيزِ بنَ موسى ما نزل بأبيه وأخيه وأهلِ بيتِهِ خلَعَ الطاعةَ وخالف، فأرسلَ إليه سليمانُ رسولاً، فلم يرجعْ، فكتب سليمانُ إلى حبيبِ بنِ أبي عُبيدةَ بنِ أختِ عقبة بنِ نافع ووجوهِ العربِ سراً بقتلِهِ، فلما خرج عبدُ العزيزِ إلى

صلاة الصبح قرأ فاتحة الكتاب، ثم قرأ سورة الواقعة، فقال له حبيب بن أبي عبيدة: حقت عليك يا ابن الفاعلة...! وعلاه بالسيف فقتله.

فمن المعقول جدا أن يكون عبد العزيز قد تحدث بشيء من السخط على بني أمية بسبب ما أنزله سليمان بأبيه وأخيه وآله دون أن يصل به هذا السخط إلى حد الثورة وخلع الطاعة، لأنه لو كان فعل هذا لأبعد حبيب ابن أبي عبيدة عن معسكره ولاحتاط منه على الأقل، فلم يكد خبر هذا الحديث يصل إلى محمد بن يزيد حتى أوعز إلى حبيب هذا ومن معه يغريهم به فغدروا به على النحو الذي تصوره رواية الواقدي، وتؤيده كل الروايات الأخرى فيه)[1] والذي يبدو أن الخلاف كان قائما على أشده بين عبد العزيز بن موسى وبين بعض الرجال، تذكر المراجع منهم: حبيب بن أبي عبيدة الفهري، الذي كان يتطلع إلى الحكم والإمارة، ويسعى

---

[1] فجر الأندلس.

جاهداً للقضاءِ على عبدِ العزيزِ بنِ موسى وزيـــادَ بـــنَ عذرةَ البلويَّ، وزيادَ بنَ نابغةَ التميميَّ، وغيرَهم وكـــان هؤلاءِ جميعاً مـــن الخـــارجين علـــى عبـــدِ العزيـــزِ، والطامعين بعرشِ الأندلسِ، والمترقّبين بتلهُّفِ الفرصـــةَ السانحةَ للانقضاضِ عليه والتخلّصِ منه لأمورٍ نقمُوهـــا عليه، أهمُّها زواجُهُ من أجيلونا التي تســـمّيها المراجـــعُ العربيةُ (أيلونا) أو أمَّ عاصمٍ، والتي كـــانتْ قبـــلَ ذلـــك زوجةً للذريق، أو لودريك كما تسمّيهِ المراجعُ الغربيةُ:

يقولُ المقريُّ: وكانت قد صـــالَحَتْ علـــى نفسِـــها وأموالِها وقتَ الفتحِ، وباعَتْ بالجزية، وأقامتْ على دينِها في ظلِ نقمتِها، فأعجبَ بها الأميرُ عبدُ العزيزِ وأحبّـــها فحظيَتْ عنده، ويقالُ: إنه سكنَ بها في كنيسةٍ بإشـــبيليةَ، وإنها قالتْ له: لِمَ لا يسجدُ لك أهلُ مملكتِك كمـــا كـــان يسجدُ للذَريقَ أهل مملكتِهِ...؟

فقال لها: إن هذا حرامٌ في دينِنا، فلـــم تقنـــعْ منـــه بذلك، وألحّتْ عليه في ذلك، ففهِمَ من كـــثرةِ إلحاحِـــها

عليه، وشدة شغفِهِ بها أن عدمَ ذلك مِمّا يُـــزري بقــدرِهِ عندها، فاتّخذ باباً صغيراً قُبالةَ مجلسه يدخلُ الناسُ منــه، فيمرون أمامَهُ، وينحنون له، وأفهمها أنَّ ذلك الفعلَ منهم تحيةٌ له، فرضيَتْ بذلك، فنُميَ الخبرُ إلى الجندِ، مع مـــا انضَمَّ إلى ذلك من دسيسةِ سليمانَ لهم في قتلِهِ، فقتلوه.[1]

ولعلَّ مناوئيه اتخذوا ذلك ذريعةً لقتلِـــه، فاتّــهموه بالتنصُّرِ، ووجدوا في ذلك فرصةً فقتلوه ليُحَقّقوا هدفَــهُم، ويصلوا إلى غايتِهِم.

ولعلَّ هذه الرواية لا تخلو من ضَعْفٍ، ولا تجدُ مــا يؤيدُها، ذلك أنَّ المراجعَ التاريخيةَ تكادُ تُجمعُ على الثناءِ على عبدِ العزيزِ بنِ موسى، وتصفُهُ بـــالعدلِ والتقــوى واللطفِ وحسنِ العشرةِ، وأنه كان من خيرِ ولاة الأندلسِ وأعدلِهِم، وأنه ضبط سلطانَها، وسدَّ ثغورَهـــا، وحمــى حدودَها، وأقام العدل بين أبنائها، فهل يعُقلُ أنَّ مَنْ كـــان بهذهِ الصفاتِ الجميلةِ أن يتنصَّـــر أو يــأمرَ رعيّتَــه أن

---

[1] نفح الطيب.

يسجدوا له...!...؟ أو يفعلَ ما يرضـي زوجتَـهُ على حساب دينِهِ.

يقولُ الدكتور مؤنس: إنّ سياقَ هذه القصـةِ يـدلُ على أنها ملفّقةٌ تلفيقاً، وأنّها وُضِعَتْ لكي تسترَ الدوافـع الحقيقيةَ التي حفَزتْ جندَ عبدِ العزيزِ على قتلِهِ.[1]

والذي يزيدُ الأمرَ وضوحاً ويؤكدُ أن مقتـلَ عبـدِ العزيزِ كان نتيجةَ مؤامرةٍ دبَّرَهـا بعـضُ جنـدِهِ، وأنَّ الخليفةَ سليمانَ كان بعيداً عن مسرحِ المؤامـرةِ، وأنـه بريءٌ من دمِ عبدِ العزيزِ، استعراضُنا للروايةِ التاليةِ:

يقولُ صاحبُ كتـاب (فتـحِ الأندلـسِ): إنَّ جنـدَ الأندلسِ اجتمعوا بعد قتلِ عبدِ العزيزِ على أيـوبَ بـنِ حبيبٍ اللخمي ابنِ أختِ موسى الذي قُتِلَ عبـدُ العزيـزِ بمشورتِهِ.

يقولُ الدكتور مؤنس في تعليقِهِ على هذه الروايـةِ: (وهي عبارةٌ هامةٌ تكشفُ لنا عن بعضِ أسـبابِ مَقْتَـلِ

---

[1] فجر الأندلس.

عبد العزيز، ولو أضفناها إلى رواية الأخبار المجموعة التي ذكرناها[١] آنفا والتي تؤكد أن سليمان استاء حين بلغه خبر مقتل عبد العزيز، وبعث يطلب إلى والي إفريقية فحص المسألة وإرسال من اشتركوا فيها إليه، تبينا أن القول بأن سليمان هو الذي حرض على مقتل عبد العزيز غير صحيح، وأن الحادث كان من تدبير نفر من رجال العرب في الأندلس، فقد كان كبار الجند وعلى رأسهم أيوب بن حبيب اللخمي هذا، وحبيب بن أبي عبيدة، وزياد بن عذرة البلوي، وزياد بن نابغة التميمي ناقمين على عبد العزيز، فقتلوه ليتولى الأمر واحد منهم وهو أيوب.

ويبدو أنهم كانوا يحسبون أن سليمان سيرضى عن فعلتهم هذه ويقرهم على ما فعلوا، ولكن سليمان لم يلبث أن أرسل يطلب عقابهم، ولم يلبث أن عزل واليهم هذا وأقام غيره.

---

[١] راجع صفحة (٣) و(٤) من كتابنا هذا.

(ولاية أيوب بن حبيب)

أجمع خصوم عبد العزيز بن موسى بعد مقتله على تولية واحد منهم وهو أيوب بن حبيب اللخمي الذي لم تزد ولايته عن ستة أشهر إذ يبدو أنه لم يكن محظوظا، وأن أنصاره لم يوفقوا بتوليته إذ سرعان ما أرسل الخليفة سليمان بن عبد الملك إلى محمد بن يزيد نائبه على إفريقية يأمره بعزل أيوب بن حبيب، وعدم اعترافه بما قام به جند الأندلس الذين شاركوا بمقتله رغبة من الخليفة بمعاقبتهم على جريمتهم وعدوانهم على عبد العزيز الخليفة الشرعي.

(ولاية الحر بن عبد الرحمن الثقفي)

تلقى محمد بن يزيد الأمر من الخليفة سليمان بعزل أيوب بن حبيب وتولية رجل آخر أنسب منه، فوقع اختياره على الحر بن عبد الرحمن الثقفي الذي اعتقد أن أيوب لن يتخلى عن ولاية الأندلس بسهولة، وأنه سوف يبذل في سبيلها مقاومة عنيفة، تماما كما كان يعتقد الحر ابن عبد الرحمن الذي اختار نحو أربعمائة من المقاتلين الأشداء وذهب بهم إلى الأندلس، فلم يستطع جندها مقاومتهم، فتخلوا عن نصرة أيوب بن حبيب وأسلموا الأمر للحر بن عبد الرحمن الذي أصبح واليا على البلاد.

قال الرازي: قدم الحر واليا على الأندلس في ذي الحجة سنة سبع وتسعين ومعه أربعمائة رجل من وجوه إفريقية، فمنهم أول طوالع الأندلس المعدودين.

وكانت ولايته سنتين وثمانية أشهر بعد قيام أيوب بن حبيب اللخمي.[1]

وتقول المراجع التاريخية: إن الحر بن عبد الرحمن كان رجلا تقيا عادلا، وكان ذا همة عالية، ونشاط كبير في الحروب والغزوات، حيث غزا غالة وما وراء البرتات حتى بلغ عاصمتها أربونة، واستمر في غزوه وجهاده في تلك البلاد وما حولها حتى اضطر أهلها إلى مصالحته وأداء الجزية.

وقيل: إنه هو الذي نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة.[2]

---

(1) نفح الطيب جـ ٣-ص١٤.

(2) نفس المرجع السابق والصفحة.

(ولايةُ السمحِ بنِ مالكٍ الخولاني)

انتهى أمرُ الخلافةِ إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رضي الله عنه بعد وفاةِ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ، فاختار للأندلسِ والياً جديداً هو السمحُ بنُ مالكٍ الخولاني، وكان رَجُلاً فاضلاً تقياً، قويَّ الأيمانِ، مخلصاً لدينِهِ، حريصاً على إقامةِ العدلِ بين رعيتِهِ، محباً للجهادِ في سبيلِ الله، ولعل الذي لفَتَ انتباهَ عمرَ بنِ عبدِ العزيز إلى وضعِ ثقتِهِ بالسمح ما رآه من صدقِهِ وأمانتِه وحرصِهِ على مصالحِ الأمةِ.

يقولُ الدكتور حسين مؤنس في كتابِهِ فجر الأندلس: وقع اختيارُ عمرَ على رجلٍ من أفاضلِ عربِ إفريقيةَ ليليَ شؤونَ الأندلسِ، وهو السمحُ بنُ مالكٍ الخولانيُّ، وكان قبل ذلك قد ظهر في مناسبةٍ لا تخلو من معنى يذكرُها معظمُ رواتِنا، فيقولون: إن عادةَ خلفاءِ بني أميةَ كانت قد جرَتْ بأن لا يُدخِلوا شيئاً مما يرسلُهُ الولاةُ من خراجِ ولاياتِهم إلا إذا شهد عشرةٌ من عدولِ

الجندِ في الولايةِ بأن هذا المالَ هو المُستصفى الحلالُ لبيتِ المال بعد دفعِ أُعطياتِ الولايةِ والإنفاقِ على مصالحِها وشؤونِها، فلما أقبلَتْ أموالُ إفريقيةَ في أحدِ أعوامِ خلافةِ سليمانَ، أقبل معها عشرةٌ من العدولِ تخيَّرهُمُ الوالي، وفيهم إسماعيلُ بنُ عبيدِ اللهِ، والسمحُ بنُ مالكٍ، فحلف الثمانيةُ الآخرون على صحةِ هذا المالِ وحلالِهِ، وأما السمحُ وإسماعيلُ بنُ عُبيدَ اللهِ فأبيا أن يحلفا، وكان عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ حاضراً إذ ذاكَ، فأعجبهُ عملُ الرجلين وضمهما إلى نفسِهِ وادَّخرهما إلى وقتٍ يحتاجُ إليهما فيه.[١]

منذ ذلك الحين لمع نجمُ هذين الرجلين عند عمرَ ابنِ عبدِ العزيزِ رضي الله عنه، وادَّخر شيئاً لصدقهما وأمانتهما، فلما انتهى إليه أمرُ الخلافةِ بادر إلى تعيينِ أحدِهما ولايةَ الأندلسِ، فكانت من نصيبِ السمحِ بنِ مالك، وولّى إسماعيلَ بنَ عُبَيدِ اللهِ على إفريقيةَ.

---

[١] فجر الأندلس.

وفي عهدِ السمحِ بنِ مالكٍ نشِطَتْ حركةُ الفتوحاتِ نشاطاً عظيماً، ذلك أنه كان يعشقُ الجهادَ في سبيلِ الله، ويحبُ فتحَ البلادِ، ورفعَ رايةِ الإسلامِ، فلم يكدْ يستقرُ في الولايةِ، ويتسلَّمُ مقاليدَ الحكمِ حتى أعلن الجهادَ والنهوضَ لقتالِ خصومِهِ فيما وراء البرتاتِ، فتوغَّلَ في البلادِ، ومضى يفتحُ المدنَ، ويدُكُ الحصونَ حتى بلغ طرسونةَ[١]، واستمر في زحفِهِ حتى وقف بأبوابِ طولوشةَ[٢].

لقد كان السمحُ بنُ مالكٍ يسعى إلى تحقيقِ أحلامِ موسى بنِ نُصَيرٍ، فتابع تقدمَهُ حتى دخل إقليمَ سبتمانيا، وهو موضعٌ يمتدُّ من منطقةِ البرانسِ غرباً إلى مصبِ نهرِ الرونِ شرقاً، ويتصلُ بما يعرفُ باسمِ الريفيرا الإيطاليةِ. وعاصمتُها أريونة التي اتخذها السمحُ قاعدةً عسكريةً لعملياتِهِ الحربيةِ داخلَ الأراضي الفرنسيةِ.

---

(١) طرسونة: مدينة بالأندلس بينها وبين تطيلة أربعة فراسخ.

(٢) طولوشة: مدينة بالأندلس في أرض غاله وفيها استشهد السمح بن مالك.

(استشهادُ السمحِ بنِ مالك)

ويبدو أن نشاطَ السمحِ بنِ مالك وسُرْعةَ تقدّمِهِ في تلك البلادِ وقد روّعَ أهلَها وأوقع في قلوبِهِمُ الرُّعْبَ، فوجّهوا ضده جيشاً كبيراً لقتالِهِ ووقفِ تقدمِهِ.

وعلى أبوابِ طولوشةَ عاصمةِ أُقطانية (أكويتانيا) دارَتْ بينه وبين دوقِها معركةٌ قويةٌ حميَ فيها الوطيسُ، وصبر المسلمون صبراً عظيماً، وثبتوا ثباتاً مشرّفاً أمام جحافلِ الفرنجةِ الذين حشدوا لهذه المعركةِ حُشوداً كبيرةً لم يستطعِ المسلمونَ التفوّقَ عليها.

وفي ميدانِ المعركةِ، وفي يومِ عرفةَ سنة /١٠٢/ هجرية سقط البطلُ السمحُ بنُ مالكٍ [1] شهيداً مجيداً بعد أن ثبتَ في وجهِ جنودِ الفرنجةِ الذين تكاثروا عليه، وأحاطوا به من كلِ جانبٍ، ووجّهوا إليه كلَّ طاقاتِهِم وإمكاناتِهِم.

---

(1) روي أن الأذان يسمعُ بذلك الموضع إلى الآن.

لقد سقط البطلُ السمحُ بنُ مالكٍ بعد أنْ ثبـــتَ مـــع جنودِهِ ثباتاً مُشَرِّفاً، وضربَ أرْوعَ الأمثلةِ في التضحيـــةِ والبطولةِ والفداءِ لبناءِ صرحِ العِزّةِ والشرفِ والكرامـــةِ لأمةٍ عُرِفَتْ بعزتِها وشرفِ أبنائِها وتَضْحياتِهِم وتفانِيـــهِم في سبيلِ رفعِ لوائِها عالياً خفاقاً.

إن الظروفَ لم تمهلِ السمحَ، ولـــمْ تجعـــلْ فـــترةَ إمارتِهِ تطولُ إذ سرعان ما وافَتْهُ المنيةُ فـــترجّلَ عـــن صهوةِ جوادِهِ وهو في قمةِ النشاطِ والحيويةِ، وعنفـــوانِ القوةِ والمجدِ والعطاءِ، وبذلك لم تُتَحْ لـــه الفرصـــةُ أن يصلَ إلى رغبتِهِ في تحقيق أحلامِهِ، ولكنه مع ذلك تـــرك آثاراً جليلةً، وبطولاتٍ رائعةً، وبصماتٍ جليلةً في فـــترةٍ قصيرةٍ لا تتجاوزُ سنتيْنِ وثمانيةَ أشهرٍ.

قال ابنُ حيانَ: ولاّهُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، وأوصـــاه أن يخمِّسَ من أرضِ الأندلسِ ما كان عَنوةً، ويكتبَ إليـــه بصفتِها وأنهارِها وبحارِها، وكان مـــن رأيـــهِ أن ينقـــلَ

المسلمين عنها لانقطاعِهِم وبعدِهِم عن أهلِ كلمتِهِم، قال: وليتَ الله تعالى أبقاه حتى يفعلَ.[1]

(إمرةُ عبدِ الرحمن الغافقي)
(الأولى)

كان البطلُ عبدُ الرحمن بنُ عبدِ اللهِ الغافقيُّ جندياً في جيشِ السمحِ بنِ مالك يقاتلُ تحت لوائِهِ، وكان من التابعين الذين دخلوا الأندلسَ، وكان يروي عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضي الله عنهما.

وحين استُشهِدَ السمحُ بنُ مالكٍ اضطربَتْ صفوفُ المقاتلين المسلمين، فلم يستطيعوا الانسحابَ من أرضِ المعركةِ إلا بفضلِ ما قام به البطلُ عبدُ الرحمنِ الغافقيُّ الذي اختاره الجندُ قائداً لهم، فبذل جهداً كبيراً في جمعِ شتاتِ الجيشِ الإسلامي المتقهقرِ بعد استشهادِ قائدِهِ، وقام بعملٍ بطولي رائعٍ استطاع به أن ينسحبَ بالجيشِ ويعودَ

[1] نفح الطيب.

به إلى مقرهِ في أربونةَ سالماً، فكانت تلك هي إمرة عبدِ الرحمنِ الأولى، ولكنها لم تَدُمْ سوى أشهرٍ قليلةٍ لأنه استُبدِلَ به قائدٌ آخر وهو عنبسه بنُ سُحَيمٍ الكلبي كما سيأتي في موضِعِهِ إنْ شاء اللهُ تعالى.

ولقد وصف المؤرخون عبدَ الرحمنِ الغافقيَّ بأنه كان تقياً شجاعاً، حَسَنَ السيرةِ، عادلاً في قسمةِ الغنائمِ.[1]

وسوف يأتي الحديث عنه مفصلاً في معرضِ الحديثِ عن إمرتِهِ الثانيةِ إن شاء الله تعالى.

(عنبسة بنُ سُحَيمٍ الكلبيُّ)

تولّى عنبسةُ بنُ سُحَيمٍ الكلبيُّ ولايةَ الأندلسِ سنةَ /١٠٣/ من الهجرةِ من قِبَلِ يزيد بنِ أبي مسلم، فكان من خيرةِ ولاةِ الأندلسِ عدلاً وورعاً، وزهداً واستقامةً، فوفّر فيها الأمنَ والأمانَ، وضبطَ الأمورَ، وحققَ العدل،

---

(١) نفح الطيب.

وأنصف المظلومين، فحظيَ بمحبةِ الرعيةِ وثقتِهم، وبذلك استقامَتْ به الأندلسُ كلُّها.

وكان عنبسة كغيرهِ من الولاةِ محباً للفتحِ والجهادِ في سبيلِ الله، فلم يكدْ يتسلَّمُ مقاليدَ الحكمِ حتى أعلن الجهادَ داخلَ أرضِ العدو ثأراً لقتلى المسلمين في طولوشةَ، وانتقاماً من دوقِها أودو الذي أنْزل بهم هزيمةً كبيرةً انتهَتْ باستشهادِ السمحِ بنِ مالك، فغزا عنبسة بنفسِهِ أرضَ الفرنجةِ حتى بلغ الأرضَ الفرنسيةَ، وتابع زحفه فيها محقّقاً النصرَ تِلْوَ النصرِ حتى وصل في زحفِهِ إلى مدينةِ ليونَ التي كان العربُ المسلمون يُسَمّونها (حصنَ لودون) ومضى عنبسة يفتَحُ البلادَ، ويدكُّ الحصون، ويسقطُ التيجانَ، ويهزمُ الأعداءَ، ويرفعُ رايةَ الإسلامِ في كلِ بلدٍ وموقعٍ وحصنٍ دون أن يجدَ في طريقِهِ مقاومة تذكَرُ إلا قربَ مدينةِ سانسَ الواقعةِ على بعد حوالي ثلاثينَ كيلو متراً جنوبيَّ باريسَ، حيث لقي مقاومةً عنيفةً جعلَتْهُ يعيدُ النظرَ في الاستمرار بتقدمِهِ في

الأراضي الفرنسيةِ، والتوغلِ بعيداً عن قاعدتِهِ أربونـــــةَ لخشيتِهِ من عدم استطاعةِ تأمينِ خطوطِ العودة، فقـــرر التوقفَ عنِ استمرارِ زحفِهِ، وأخذ يراجعُ حساباتِهِ مـــن جديدٍ كيلا يعيدَ مأساةَ طولوشةَ، فيوقعَ جيشَهُ في ورطـــةٍ ربّما لا يستطيعُ الخروجَ منها.

كما أنَّ الأنباءَ بلغَتْهُ بانبعاثِ العصبيةِ القبليةِ فـــي الأندلسِ، ووقوعِ خلافٍ بين العربِ والبربرِ أوشَـــكَ أن يوديَ بالمسلمين ويقضـــيَ عليـــهم، كمـــا أن نصـــارى الأندلسِ يتنمَّرون للإســـلامِ، ويتـــآمرونَ عليـــه بـــالليلِ والنهارِ، ويتحينّون الفرصةَ المناسبةَ للانقضاضِ علـــى المسلمين وتصفيتِهِم.

من أجلِ هذا قرَّرَ القائدُ العظيمُ عنبسة بنُ سُحَيمٍ أن يتوقفَ عن زحفِهِ داخلَ الأرضِ الفرنسيةِ، وأن يعودَ إلى الأندلسِ ليتصدّى بنفسِهِ للمشاكلِ الداخليةِ، ويقضي علـــى العصبيةِ القبليةِ، ويستأصلَ بذورَ الشرِ، ويقطـــعَ رؤوسَ

الفتنةِ، ويعيدَ الأمنَ والاستقرارَ إلى البـــلادِ، ومـــن ثَـــمَّ يتفرَّغُ للجهادِ والفتحِ.

وهكذا عاد البطلُ المسلمُ أدراجَه إلى قرطبةَ بعد أن قطعَ أكثرَ من ألفِ ميلٍ نشر خلالَ حملتِهِ في تلك البـــلادِ رُعْباً شاملاً، جعل أهلَها يخشون عودتَهُ، ويحسبون لـــها ألفَ حساب، فهو وإن ترك الجهادَ وغادرَ تلـــك البـــلادَ للأسبابِ الآنفةِ الذكرِ، إلاّ أنه ينفردُ بين جميـــعِ الـــولاةِ والفاتحين المسلمين بفخرِ رفعِ راياتِ الإسلامِ في قلـــبِ أوربا الغربية ولعلَّهُ انفردَ بهذا الفخرِ فلم يدرِكْ شأوَهُ بعد ذلك فاتحٌ مسلمٌ آخرُ.

(وفاةُ عنبسة بنِ سُحَيمٍ)

ترك عنبسة تقدمهُ في الغربِ الأوربي وعاد إلـــى الأندلسِ، ولعلَّهُ لم يكنْ حذراً في طريقِ عودتِـــهِ، فقـــد داهمته جموعٌ غفيرةٌ من الفرنجةِ التَحَمتْ معه في موقعةٍ كبيرةٍ أُصيبَ فيها بجراحٍ بالغةٍ توفي على أثرِهـــا فـــي

شعبانَ سنةَ /١٠٧/ للهجرةِ، وعاد الجيشُ العربيُّ مـــن حيثُ انطلق إلى قاعدتِهِ أربونةَ وكان عنبسة عازماً على العودة إلى الأندلسِ وبسببِ جراحاتِهِ لم يتمكّنْ من ذلـك فرجع الجيشُ إلى أربونةَ.

وكانت ولايتُهُ أربعةَ أعوامٍ وأربعةَ أشهرٍ.

(عذرةُ بنُ عبدِ اللهِ)

(الفهري)

وعذرةُ هذا هو الذي خلف عنبسة بعد وفاتِهِ بسـببِ جراحاتِهِ البليغةِ، وقد ظلَّ عذرةُ والياً علـى الأندلسِ سنتين وثلاثةَ أشهرٍ.

يقولُ الدكتور مؤنس: ولا تنسبُ الروايةُ الإسـلاميةُ إلى عذرةَ أيَّ عملٍ حربي في غالـةَ، ولكـن الروايـةَ النصرانيةَ تذكرُ أعمالاً حربيةً خطيرةً قام بها المسـلمون بعد مقتلِ عنبسة مباشرةً، وحيثُ إن ولايةَ عذرةَ دامَـتْ سنتين وأشهراً فلا بُدَّ أن هذه الأعمالَ وقعَتْ خلالَها.

ويتابعُ قولَهُ نقلاً عن رينو أخبارَ هذه الأعمالِ فيقولُ:

(وقد قتل عنبسة في إحدى غزواتِهِ سنةَ /٧٢٥/م واضطر خليفتُهُ عذرةُ إلى قيادةِ الجيشِ في طريقِ العودةِ إلى الحدودِ، ولم تلبثِ الحربُ أنِ استمرتْ من جديدٍ في عنفٍ، ولما كانَتْ أمدادٌ كثيرةٌ قد أقبلَتْ من الأندلسِ، فقد نهض قادةُ المسلمين وقد شجّعتهمُ المقاومة القليلةُ التي صادفوها، وأخذوا يرسلونَ الحملاتِ في كل جهةٍ.

ويقولُ مؤرخٌ عربيٌّ: إن رياحَ الإسلامِ أخذَتْ تهبُّ على النصرانيةِ من كلِ ناحيةٍ، فاقتحم المسلمون سبتماينةَ مرةً أخرى، وعادوا إلى حوضِ الرونِ، وغَزوا بلادَ الألبيين وإقليمَ روبرج وجيفودان وليفيليه، ونهبوها نهباً ذريعاً، وأتتِ النيرانُ على ما أغفلَتْهُ سيوفُ العربِ، حتى لقدِ استنكر الكثيرون من الفاتحين أنفسِهم هذا الإسرافَ في أعمالِ العنفِ.)[١]

---

[١] فجر الأندلس.

هذا... ولم يشيرْ رينو إلى المراجعِ التي استند إليها في ذلك، الأمرُ الذي يجعلُ كلامَهُ هذا لا قيمةَ له من الناحيةِ التاريخيةِ، فهو كغيرِهِ من المؤرّخين والباحثين الغربيين يعلمُ تماماً آدابَ الجهادِ عند المسلمين، والتزامَهُمُ التامَّ والكاملَ بتلك الآدابِ، وأنه لم يؤثَرْ عنهم إلا الرحمةُ والأعمالُ الطيبةُ والإنسانيةُ، والبعدُ عنِ البطشِ والحرقِ والوحشيةِ والتخريبِ، حتى لقد قال أحدُ المستشرقين: ما عرف العالمُ فاتحاً أرحمَ منَ العربِ).

فكيف يعمدُ رينو وغيرُهُ إلى تزييفِ الحقائق وإتهامِ المسلمين بما ليس فيهم، ووصفِهِم بالمجرمين واللصوصِ وقطاعِ الطرقِ من غيرِ استنادٍ إلى مصدرٍ تاريخيٍّ موثوقٍ ....!!...؟؟ سبحانك اللهم هذا بهتانٌ عظيمٌ.

(ومَنْ يكسِبْ إثماً فإنما يكسِبُهُ على نفسِهِ وكان اللهُ عليماً حكيماً. ومَنْ يكسِبْ خطيئةً أو إثماً ثم يرمِ به بريئاً فقدِ احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً)(1)

---

(1) الآيتان /111-112/ من سورة النساء.

﴿يريدون أنْ يطفِئوا نورَ اللهِ بأفواهِهِم ويـأبى اللهُ إلا أنْ يُتِمَّ نورَه ولو كرِهَ الكافرون﴾[1] صدق الله العظيم.

وللدكتور حسين مؤنس في هذا المجالِ كلامٌ جميـلٌ يردُّ فيه على رينو وغيرِهِ ويدحضُ أقوالَهم فيما زعمـوه من اتهامٍ للمسلمين، وما رموهم به من أعمـالٍ سـيئةٍ، وتصرفاتٍ مشينةٍ تنفي عنهم صفةَ الرحمـةِ والإنسـانيةِ، أحببتُ أن أنقلها في هذه المناسبةِ.

فقال: ولم تشِرِ المراجعُ التي أشار إليها رينـو أن العربَ همُ الذين خربوا النواحيَ التي ذكرها كلها، وإنمـا هو الذي جعل دأبَهُ ــ كلما وجد ديراً قـدِ احـترقَ، أو كنيسةً تخربَتْ في هذه المدةِ ــ نسبةَ ذلك إلى المسـلمين، مع علمِهِ بأن العصرَ كلَّهُ كان عصرَ اضطرابٍ وحروبٍ بين النصارى فيما بين بعضِهِم وبعضٍ في هذه الجـهاتِ من غالةَ على وجهِ الخصوصِ، ومع علمِهِ بأنَّ كلوفـس نفسَهُ أنزل بالكنائسِ والأديرةِ في جنوبـي غالـةَ وفـي

---

[1] الآية /٣٢/ من سورة التوبة.

بورجوينا، وفي أقطانية من التخريبِ والأضرارِ ما فاق كل وصفٍ، وليس من المعقولِ أن المسلمين لم يكنْ لهم همٌّ في غاراتِهِم في غالةَ إلا تخريبُ الكنائسِ والأديرةِ، وإشعالُ النارِ في المدنِ، فقد فتحوا قبل ذلك مصرَ وإفريقيةَ والأندلسَ وهي كُلها غاصةٌ بالكنائسِ والأديرةِ وما إليها من المؤسساتِ النصرانية، فلم يحرقوا ولم يخربوا، فمن عجبٍ أن ينقلبَ حالُهم إذا عبروا إلى غالةَ فيتحولوا إلى برابرةٍ مخربين لا يكادون يبقون على شيءٍ...!

الواقعُ أن هذا الكلامَ لا يقولُهُ مؤرخٌ جادٌّ يقدِّرُ معنى ما يقولُ، فليس من الجدِ في شيءٍ أن يقالَ إن العربَ لم يفعلوا في غالةَ غيرَ تخريبِ الكنائسِ وحرقِ الأديرةِ، والثابتُ المعروفُ عنهم أنهم لم يخربوا كنيسةً أو يحرقوا ديراً، وإذا نحن قارنّا المسلمين بالشعوبِ التي كانَتْ تسودُ غالةَ في ذلك الحِينِ من فرنجةٍ وقوطٍ غربيين، وقوطٍ شرقيين، وبرغنديين ومَنْ إليهم لتبيّنا أن المسلمين كانوا أعظمَ حضارةً وأبعدَهم عنِ النهبِ

والتخريبِ، ومهما بحثنا في حولياتِ ذلك العصرِ فلن نجدَ بين مَنْ ظهروا على مسرحِ الحوادثِ في غالبِ خلالَ النصفِ الأولِ من القرنِ الثامنِ الميلادي رجالاً نستطيعُ أن نقارنَهم بالسمحِ بنِ مالكٍ، أو عنبسةَ بنِ سُحَيمٍ، أو عبدِ الرحمنِ الغافقي)[1]

(إمرةُ عبدِ الرحمنِ الغافقي الثانيةُ)

التعريف به

تقدم معنا أن عبدَ الرحمنِ الغافقيَّ كان تابعياً، وكان يروي عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضي الله عنهما.

وأصلُ عبدِ الرحمن عربيٌّ أصيلٌ من اليمنِ من قبيلةٍ يقالُ لها: غافق ولذلك قيل في نسبِهِ إنه غافقيٌّ.

كان رضي الله عنه مسلِماً سليمَ الإيمانِ، بعيداً عن نزعةِ العصبيةِ القبليةِ محباً للفتحِ والجهادِ، منتصراً لإقامةِ الحقِ والعدلِ بين أفرادِ الدولةِ الإسلاميةِ من غيرِ

---

(1) فجر الأندلس.

تمييز أو تفريق أو محاباة، حريصا على تطبيق أصـــول الشريعة الإسلامية، ولا يحفل بعد ذلـــك بغضـــب مـــن خالفه، أو سرور من أقره ولو كان من أولي الأمـــر، ولا غرابة في ذلك إذ أنه تلميذ عبد الله بن عمر رضــــي الله عنهما وصاحبه وجليسه، ومن الطبيعي أن يكتسب منـــه الأخلاق الفاضلة، والصفات النبيلة، والعادات الحميـــدة، والجرأة النادرة.

يقول ابن عبد الحكم بعد الكلام عن احدى غـزوات عبد الرحمن:

(وكان فيما أصاب رجل مفضضة بالدر والياقوت والزبرجد، فأمر بها فكسرت، ثم أخرج الخمس وقســـم ذلك في المسلمين الذين كانوا معه، فبلغ ذلك عبيدة بـــن عبد الرحمن القيسي عامل إفريقيـــة، فغضـــب غضبـــا شديدا، وكتب إليه كتابا يتوعده فيه، فكتـــب إليـــه عبـــد الرحمن:

(إن السماوات والأرض لو كانتا رتقا لجعل الرحمن للمتقين منها مخرجا، ثم خرج إليهم أيضا غازيا، فاستشهد وعامة أصحابه)[1]

شجاعته

أضف إلى صفات عبد الرحمن السابقة، صفة النبل والشهامة، والرجولة والشجاعة، وهي صفات عظيمة يتصف بها الإنسان العربي فكيف إذا كان مسلما...!

ومن المؤسف أن أخباره لدينا قليلة جدا لا تتفق مع حياته المليئة بالبطولة والشجاعة، ولا تتناسب مع الدور الكبير الذي قام به في تاريخ الإسلام.

كما أن من المؤسف أن المراجع النصرانية تذكر عنه بعض المواقف أكثر مما تذكره المراجع الإسلامية، فهذا إيزدور الباجي حين يتحدث عنه يصفه بالبطولة والشجاعة، ويضع السم في العسل فيقول: (إنه كان رجلا نشيطا عنيفا قاسيا، لا يبالي أن ينزل بالنصارى

---

(1) فجر الأندلس.

أقسى المظالمِ وأشدَّ ألوانِ الاضطهادِ والتخريبِ والقسوةِ)[1]

ويا ليته اكتفى بالإشارةِ إلى شجاعةِ عبدِ الرحمنِ النادرةِ، ومقدرتِهِ الحربيةِ العظيمةِ، ولم يتعرضْ لوصفِهِ بالعنفِ والقسوةِ، واضطهادِ النصارى الخ.. لكان خيراً له وأتمَّ وأكملَ...!!

لقد كان عبدُ الرحمنِ الغافقيُّ جندياً مسلماً، ومجاهداً في سبيلِ اللهِ، أمضى معظمَ شبابِهِ بين صفوفِ جيشِ المسلمين المجاهدةِ في أرضِ الفرنجةِ وما وراء البرتاتِ، ولم يتخلفْ عن معركةٍ خاضها المسلمون، أو غزوةٍ غزوها في قلبِ بلادِ العدو.

إننا لم نكدْ نسمعُ أو نقرأُ شيئاً عن شجاعتِهِ الفائقَةِ وبطولتِهِ النادرةِ ولم نعلمْ عنه شيئاً إلا حين استُشهدَ السمحُ بنُ مالكٍ في معركةِ طولوشةَ واضطرب المسلمون، وذُهلوا ذهولاً كبيراً، وزلزلوا زلزالاً شديداً،

---

[1] المرجع السابق.

ثم وقع اختيارُهم على البطلِ عبـــدِ الرحمـــنِ الغـــافقي، فأسندوا إليه مهمةَ قيادةِ الجيشِ وكانت هذه المرةَ الأولـــى أن يقومَ بمثلِ هذا العملِ الشاقِ والمســـؤوليةِ الجســـيمةِ، فكان عليه أن يبذلَ جهداً كبيراً لإنقاذِ الجيشِ المسلمِ مـــن محنةٍ كبيرةٍ، ومذبحةٍ أليمةٍ تكادُ تودي بجميــــعِ أفـــرادِهِ وتقضي عليهم فلا تقوم لهم بعدها قائمةٌ.

وبفضلِ ما بذله من جهدٍ كبيرٍ، وما قام بــــه مـــن عملٍ بطوليٍ عظيمٍ استطاع أن ينسحبُ بالجيشِ وينقـــذَهُ من كارثةٍ محققةٍ.

منذ ذلك الحين عرف الناسُ عبدَ الرحمنِ الغـــافقيَّ بطلاً مغواراً، وقائداً شجاعاً، ومخططـــــاً حربيـــاً مـــن الطرازِ الأولِ.

ولقد أجمع المؤرخون على أنه كـــان أقـــدرَ قـــائدٍ عسكري عرفَتْهُ الأندلسُ في عصرِ الولاةِ.

جهادُهُ

أولاً: فتح آرل.

تولّى عبدُ الرحمنِ الغافقيُّ إمارةَ الأندلسِ سنةَ /١١٢/ للهجرة، ومنذ توليه الإمارةَ قام بإصلاحاتٍ داخليةٍ استعداداً للقيامِ بغزواتٍ كبيرةٍ وواسعةٍ داخلَ بلادِ الفرنجةِ، فهو القائدُ الشجاعُ الذي استطاع بحنكتِهِ الحربيةِ، وجرأتِهِ القتاليةِ أن ينقذَ الجيشَ الإسلاميَّ بعد هزيميتِهِ في معركةِ طولوشةَ والتي استُشهِدَ فيها القائدُ السمحُ بنُ مالكٍ، ولهذا كان في عبدِ الرحمنِ توقٌ كبيرٌ إلى أن ينتقمَ لهذه الهزيمةِ، ويُعيدَ للجيشِ الإسلامي هيبتَهُ، ويرفعَ له من معنوياتِهِ فقام يعلنُ الجهادَ في سبيلِ الله فاستجاب له المتطوعون وتدفّقوا عليه من كلِ ناحيةٍ حتى اجتمع إليه عددٌ كبيرٌ من الجندِ تشكَّلَ منه جيشٌ ضخمٌ قيل: إنه بلغ سبعين ألفاً، وقيل: مئةَ ألفٍ، ومعظمُهُم من البربرِ، وفي أوائلِ عام /١١٤/ بدأ عبدُ الرحمنِ الغافقيُّ تحركَهُ فزحفَ بجيشِهِ البالغِ عددُهُ أكثرَ

من سبعين ألفا كما تقدم سالكا الطريق المؤدية إلى وادي الردانة قاصدا مدينة آرل التي أعلـــن أهلـــها تمردهـــم وخروجهم عن طاعته، ورفضهم أداء الجزية المفروضة عليهم، فخرجوا لقتاله فدارت بينه وبينهم معركة عنيفـــة جدا استطاع أن ينتصر عليهم ويلحق بهم هزيمة كبـــيرة، فدخل المدينة واستولى عليها، وعـــامل أهلـــها معاملـــة إنسانية كما أمره به دينه الحنيف.

فلما تمت له السيطرة علـــى مدينـــة آرل، وثبـــت أقدامه فيها، وقدم له أهلها الولاء والطاعة، وأدوا إليـــه الجزية، انطلق متوجها بجموعه المؤمنة نحـــو الغـــرب قاصدا دوقية أقطانية (أكويتين) وكانت هذه تعتـــبر مـــن أعظم إمارات (غالة) وتمتد من جبال البرتات إلى حـدود اللوار في الشمال، ومن نهر الأليبه في الشرق إلى خليج يسكاية في الغرب.

هذا ... ولم يسلك عبد الرحمن الطريق التي كـــان يسلكها من يسلكها من قبله من القادة والأمراء، بل ســـلك

طريقاً وعرةً تقعُ في وسطِ الجبالِ تُفضي إلى أقطانيةَ مباشرةً، وله في ذلك هدفان، الأول: تضليلُ الأعداءِ عن وجهتِهِ الحقيقيةِ.

الثاني: تمهيدُ أمرِهِ، وتأمينُ طريق عودتِهِ إذا ما وجد نفسَهُ مضطراً إلى العودةِ.

ثانياً: (الاستيلاءُ على بوردو أو بردال)

انطلق عبدُ الرحمنِ بجنودِهِ مكتسحاً ما في طريقِهِ من معاقلَ ومدنٍ وحصونٍ، متتبعاً مجرى نهرِ الجارونِ، متوغلاً في السهلِ الواسعِ قريباً من نهرِ اللوارِ، متوجهاً بجيشِهِ نحو مدينةِ بردال، وكان دوقُها[1] قد علم بمجيءِ عبدِ الرحمنِ، فحشد للقائِهِ جيشاً كبيراً كَمَنَ له في الطريق.

وعلى ضفافِ نهرِ الدوردوني على مقربةٍ من ملتقاه بالجارونِ التقى الجيشان، ودارَتْ بينهما معركةٌ قويةٌ طاحنةٌ أنزل اللهُ فيها نصرَهُ على عبادِهِ، وألحق بالدوقِ وجيشِهِ هزيمةً قاصمةً ذهب فيها عددٌ كبيرٌ جداً

---

[1] الدوق لقب لحاكم المدينة أو رتبة عسكرية كبيرة عند الفرنجة، هذا... ولم تذكر المراجع التاريخية اسم ذلك الدوق، ولعله الدوق أودو الذي سيأتي الحديث عنه.

من الجنودِ والفرسانِ، وفرَّ الدوقُ هارباً، وتقهقر جيشُـــهُ أمام المسلمين، مخلفاً وراءهُ قتلى غطَّوا وجـــهَ الأرضِ، وأصبحتِ العاصمةُ بردال، أو بوردو خاليةً من جنودِهـا ليدخلَها عبدُ الرحمنِ الغافقيُّ وجنودُهُ فـــاتحين، مُكَلَّليـن بالنصرِ والظفرِ، تعلو رؤوسَهُمُ العزةُ، ويتوجُ هاماتِـــهِمُ المجدُ والفخارُ.

هذا ... وقد خلف الدوقُ وجنودُهُ أمـــوالاً وفـيرةً، وعتاداً وأسلحةً كثيرةً جعلها اللهُ للمسلمين فيئاً وغنيمةً.

(معركة بلاطِ الشهداءِ)

أولاً: موقفها

سُمّيَتِ المعركةُ بهذا الاسم لكثرةِ مَنْ سقط فيها من شهداءِ المسلمين، ويعتقدُ البعضُ أن المرادَ بلفظِ (بلاط) طريقٌ مبلَّطٌ وهذا خطأٌ، إذ لفظُ (بلاط) يعني القصرَ أو الحصنَ المحاطَ بحدائقَ تابعةٍ له، واللفظُ مأخوذٌ من الكلمةِ اللاتينيةِ (بالاتوم) وعلى هذا فبلاطُ الشهداءِ معناه في الواقعِ (قصرُ الشهداءِ) الأمرُ الذي يوحي إلى أنَّ الموقعةَ كانت على مقربةٍ من قصرٍ أو حصنٍ كبيرٍ له علاقةٌ بحوادثِ المعركةِ.

ويقعُ موقعُ المعركةِ إلى الشمالِ من بواتييه في الاتجاهِ المؤدي إلى تور، أي على الطريقِ الروماني القديمِ بين البلدين، أي بين بواتييه وتور، على بعدِ نحو عشرين كيلو متراً من مدينةِ تور.

(أودو يستنجدُ بشارل مارتل)

وتابع عبدُ الرحمـــن زحفَــهُ وتقدمَــهُ فـــي أرضِ الفرنجةِ مكتسحاً البلادَ، لا يقفُ له جيشٌ إلا حَصَـدَهُ، ولا مقاومةٌ إلا قضى عليها وأبادَها حتى بلغ اللوار، وتـــابع فتحَهُ حتى دخل مدينةَ تور على مرأىً من جيشِ شـــارل مارتل، هنالك أسرع درقُها أودو إلـــى شـــارل مـــارتل يستنجدُ به، ويحثُّهُ على مساعدتِهِ والوقوفِ إلـــى جانبِـــهِ لصدِ تقدمِ المسلمين.

لقد فعل أودو ذلك رغم الخلافِ الحادِ بينه وبيـــن شارل مارتل إذ وجد نفسَهُ مضطراً إلى مصالحتِهِ لعقـــدِ حلفٍ بينهما، وتوحيدِ قواهما للوقوفِ في وجهِ المسلمين، وكذلك رَحَّبَ شارل مارتل بهذا الصلحِ لنفسِ الغـــرضِ، ولرغبتِهِ ببسطِ نفوذِهِ على أقطانيةَ (أكويتين) وما حولـــها

لإبعادِ الخطرِ الإسلامي الـــذي استشــعره منــذُ غــزا المسلمون بلادَهُ وبسطوا نفوذَهم على بورجوينا ومنطقـــةِ اللوارِ.

يقولُ الدكتور مؤنس: (وقد عرف مــــارتل كيــف يأخذُ للأمرِ عدتَهُ، فجعل يجمعُ الجندَ والفرسانَ من كـــلِ ناحيةٍ، ولم يدّخرْ جُهْداً في ذلك، فقد كان الخطرُ في هـذه المرةِ واضحاً جلياً، ويبدو أنه لم يكتفِ بمن كان عنـــده من الجندِ في غالةَ، فبعث يستقدمُ جنداً من حدودِ الريــف من نواحي أوستراسبيا، فأتَتْهُ نجداتٌ من جنودِ أحـــلاف أقوياءَ يحاربون شبهَ عراةٍ في مثلِ هذا الجوِ البارد.

ويصفُهم إبزيدور بأن أيديَهم كانت حديديةً ترســـلُ ضرباتِها القاصمةَ في سرعةٍ وقوةٍ، وبهذا اجتمع لمــارتل جيشٌ قويٌ قديرٌ على الثباتِ للعربِ ومنازلتِهم.

وينبغي أن نضيفَ هنا أن الفرنجةَ الساليين أنفُسَـهم ـ ومنهم كان معظمُ جندِ مارتل ـ كانوا قوماً بدويين أشداءَ لا يقلّون عن العربِ صلابةً ولا شجاعةً، فقد مهّدوا بحرابِهم وصدورِهم غالةَ كلَّها، وغلبوا البرغنديين والقوطَ الفربيين وبقايا الرومانِ في غالةَ، وغلبوا السكون عدّةَ مراتٍ وما زالوا بهم حتى كسروا شوكتهم، وانصاعتْ لهم جماعاتٌ كثيرةٌ من المتبربرين كالسويف والآلانِ)[1]

ويتابعُ حديثَهُ عنِ استعدادِ شارل مارتل ووصفِهِ فيقولُ:

(وكان سياسياً قارداً، ومحارباً ماهراً استطاع أن يجمعَ الناسَ حولَهُ بالقوةِ تارةً وبالسياسةِ تارةً أخرى، واجتمعتْ له قواتٌ ظل يرقبُ بها الحوادثَ، فلما بَلغَتْهُ

---

[1] فجر الأندلس.

أنباءُ الغزو العربي شعر ألاّ مندوحةَ له عنِ اتخاذِ الأُهبةِ، ثم أقبل خصمُهُ أودو يستغيثُ به فلبّى النـــداءَ وأســـرَعَ للقـــاءِ المسلمين بنفسٍ مشرئبةٍ للظفرِ، وجنودٍ متطلعةٍ للقتالِ.)[1]

(استعدادُ المسلمين)

إذا كان شارل مارتل قدِ استعدَّ هذا الاستعدادَ الرهيبَ، واستعانَ بجنودٍ أجلافٍ أقوياءَ مدرَّبين على أخطـــرِ أنـــواعِ الأسلحةِ تدريباً ماهراً، وحاملين بين صدورِهم قلوباً صلبـــةً وقويةً لا تعرفُ معنى الرحمةِ، وأكفّاً حديديـــةً ضخمـــةً وقاسيةً، فإن الروحَ المعنويةَ في الجيشِ الإسلامي تفـــوقُ بكثيرٍ عددَ جيشِ شارل مارتل وعدتَهُ، وتتغلـــبُ عليـــه مهما بلغ من القوةِ واليأسِ وشدةِ القسوةِ والمراسِ.

---

(1) المرجع السابق.

إن المسلمين يحملون عقيدة أقوى من الأيدي الحديدية التي يملكها جنود شارل مارتل، وأمضى شكيمة، وأشد بأسا من ضرباتها القوية والقاصمة التي اعتمد عليها شارل مارتل وراح يهدد بها المسلمين، بل إنها أصلب من جلفهم، وشدة بأسهم، وكثرة جمعهم.

إنهم يحملون عقيدة ثابتة وراسخة رسوخ الجبال الراسيات، تلكم هي عقيدة الإيمان بالله تعالى الذي يقول: (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)[١]

والذي أمر عباده بالجهاد وضمن لهم النصر، فقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)[٢]

---

(١) الآية /٤٠/ من سورة النحل.

(٢) الآية /٧/ من سورة محمد.

وبقوله تعالى: (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما)[1] هذا ...والآيات الكريمة في هذا المجال كثيرة جدا، وجميعها تحمل دعوة حارة للجهاد في سبيل الله، وتضمن النصر للمؤمنين الذين يستجيبون لهذه الدعوة بصدق وإخلاص، ويندفعون بكل ثقة وإيمان لبذل أرواحهم رخيصة في سبيل الله يهزؤون بالأخطار، ولا يبالون بالموت، لإيمانهم المطلق بأنها إحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة، وثقتهم العميقة بوعد الله تعالى بأنه هو المشتري والمؤمن هو البائع، والثمن جنات النعيم، والفوز بالخير العميم، وذلك هو الفوز العظيم، مصداق ذلك قول الحق تبارك

---

(1) الآية /٧٤/ من سورة النساء.

وتعالى: (إنَّ اللهَ اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنَّ لهمُ الجنةَ يقاتلون في سبيلِ اللهِ فيَقْتُلون ويُقتَلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيلِ والقرآنِ ومَنْ أوفى بعهدِهِ مِنَ اللهِ فاستبشروا ببيعِكُمُ الذي بايعتم به وذلك هو الفوزُ العظيم)[1] صدق الله العظيم.

وهذا الوعدُ كفيلٌ في دفعِ المؤمِنِ إلى بذلِ النفسِ والنفيسِ، والغالي والرخيصِ في سبيلِ الله تعالى طيبةً به نفسُهُ، مطمئناً به قلبُهُ، مرتاحاً له ضميرُهُ، فكلُ شيءٍ يهونُ ما دام في سبيلِ اللهِ وابتغاءِ وجهِهِ، ونيلِ مرضاتِهِ. فشتّانَ ما بين عقيدةٍ مؤمنةٍ سليمةٍ صافيةٍ من الأكدارِ، وبين عقيدةٍ ماديةٍ همجيةٍ وحشيةٍ غاشمةٍ لا تعرفُ معنى الرحمةِ، ولا تفهمُ سوى لغةِ القتلِ والسطوِ والنهبِ

---

[1] الآية /١١١/ من سورة التوبة.

والسلبِ، إنهما عقيدتان متضادّتان ومتصارعتان ومتعاديتان. ولسوف يبقى الصراعُ بينهما قائماً إلى يومِ القيامةِ في جولاتٍ متتابعةٍ، وأحقابٍ متلاحقةٍ، ومعاركَ متتاليةٍ لا يلبثُ الباطلُ بعدها أن يخرَّ صريعاً مجندلاً، تصديقاً لقولِ الحق تبارك وتعالى: (فأما الزبدُ فيذهبُ جُفاءً وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ)[1]

(وقلْ جاء الحقُ وزهقَ الباطلُ إن الباطلَ كان زهوقاً)[2]صدق الله العظيم، لذا فإنَّ مصيرَ الكفرِ مهدَّدٌ مهما يُحدِثْ من شغبٍ، ومهما يجندْ من شياطين، إنهمَ كرغوةٍ منتفشةٍ سرعان ما تهدأُ وتَسْكنُ ثم تذوبُ وتتلاشى إلى غيرِ رجعةٍ، وسيعلمُ الذين ظلموا أيَّ منقلَبٍ ينقلبون.

---

(١) الآية /١٧/ من سورة الرعد.

(٢) الآية /٨١/ من سورة الإسراء.

ثانياً: (زمانُ المعركةِ وتفاصيلُها)

في أواخرِ شهرِ شعبانَ سنةَ /١١٤/ للهجرةِ وقعَت أحداثُ معركةِ بلاطِ الشهداءِ وكان اللقاءُ بين جيشِ المسلمين بقيادةِ عبدِ الرحمنِ الغافقي، وجيشِ الفرنجةِ بقيادةِ شارل مارتل، فكان كلٌّ من الجيشين متحفزاً للآخرِ، ومقدراً خطورةَ هذا الصراعِ الحاسمِ، لذلك لم تبدأ المعركةُ كعادةِ الحروبِ أيامئذٍ بالنزالِ، بأن ينزلَ من كلِ جيشٍ فارسٌ فإذا تغلب أحدُهما على الآخرِ وقتله التَحمَ الجيشان وبدأ القتالُ، بل وقف الجيشان يرقُبُ كلٌّ منهما حركةَ الآخر، واكتَفوا بالتراشقِ بالنبلِ والترامي بالحجارةِ والحصى، واستمروا على هذه الحالِ بضعةَ أيامٍ ثم تحولوا إلى اشتباكاتٍ قليلةٍ بين بعضِ الفرسانِ أسفرَت بعد ذلك إلى التحامِ الجيشين في قتالٍ ضارٍ

وعنيفٍ، وقد وضع كلُ فريقٍ إمكاناتِهِ وطاقاتِهِ القتاليـــــةَ واجتهد على التغلبِ علـــى خصمِــهِ لحســمِ المعركــةِ لصالحِهِ.

ولنصغِ إلى الدكتور مؤنـــس وهـــو يصـــفُ جـــوَّ المعركةِ: (واجتهد الفرنجةُ ومَنْ معـــــهم مِــنَ الألمـــانِ والسويف والسكسونِ في اختراقِ خطوطِ العربِ يومَيـــن متتاليين دون نتيجةٍ، وقد بذلوا أقصى ما استطاعوا مـــن جهدٍ وهَجَمَ مشاتُهم وفرسانُهم على المســـلمين هجومـــاً عنيفاً بالحرابِ، ولكنَّ هؤلاءِ ثبتوا ثباتاً فريداً، بل بدا في بعضِ الأحيانِ ــ قـــربَ مســـاءِ اليـــومِ الثـــاني علـــى الخصوصِ ــ أن المسلمين أخذوا يتفوقون على أعدائِهِم.

ثم حدث بعد ذلك أنِ اندفَعَتْ فرقةٌ مـــــن فرســـانِ الفرنجةِ فاخترقَتْ صفـــوفَ المســـلمين فـــي موضـــعٍ،

وأفضَتْ إلى خلفِ الصفوفِ حيثُ كان المســلمون قــد أودعوا غنائِمَهم، وكانت شيئاً عظيماً جداً)[1]

وهنا مكمنُ الخطر، إذ كان في الجيشِ الإســلامي نقطةُ عيبٍ خطيرةٌ لم تكن لتخفى علــى الأمــيرِ عبــدِ الرحمن، تلكم هي تكالُبُه وشدةُ حرصِهِ على الاحتفــاظِ بالغنائمِ التي ظفر بها، وهي نقطةٌ خطيرةٌ جداً يمكــنُ أن تحولَ سيرَ المعركةِ وتكونَ السببَ الرئيسيَّ في خســارةِ المسلمين، ولم يكنْ باستطاعةِ الأميرِ عبــدِ الرحمــنِ أن يحملَ جيشَهُ على تركِ الغنائم ليتفرغَ للمعركةِ خوفاً مــن التمردِ.

وقد أدرك الفرنجةُ هذه الناحيةَ واستغلوها لصالحِهم أحسنَ استغلالٍ، فأرسلوا جماعةً منهم قــامتْ بحركــةٍ

---

(1) فجر الأندلس.

التفاف سريعةٍ، وهـــاجَمَتِ الغنـــائمَ، فارتـــاع الجنـــودُ المسلمون وخشيَ الكثيرون منـــهم أن يســتوليَ عليـــها هؤلاءِ الفرنجةُ، ووقع الاضطرابُ في صفوفِ المســلمين أدّى إلى اختلالِ نظامِ الجيشِ، وفشِلِ الخطـــةِ الحربيـــةِ المرسومةِ للقتال، فترك عـــددٌ كبـــيرٌ منـــهم مواقعَـــهم وسارعوا لحمايةِ الغنائم، فاتّسَعَتْ الثغرةُ التي نفذ منـــها الفرنجةُ الذين اندفعوا في قوةٍ وعنفٍ ينزلون بالمســلمين الضرباتِ القاصمةَ التي زلزلَـــتْ نظامَـــهُم، وأفقدَتْـــهم صوابَهم، وجعلَتْهم حيارى مضطربين لا يدرون من أيـن يأتيهمُ الطعنُ، وكأنّه ينزلُ عليهم كـــالمطر مـــن شـــدةِ الزلزلةِ وهولِ المفاجأةِ، وكأنَّ اللهَ عز وجـــل ابتلاهـــم بالغنائم وامتحنهم بها كما امتحنَ أصحـــابَ رســولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يوم معركةِ أُحدٍ.

(استشهاد عبدِ الرحمنِ الغافقي)

أُصيبَ الجيشُ الإسلاميُّ بـــالذهولِ، واضطربــتْ صفوفُهُ من هولِ المفاجأةِ وانقسم إلى قسمين: قسمٍ سارع إلى الغنائمِ ليحميَها، وقسم بقي في أرضِ المعركةِ يقــاتلُ الأعداءَ إلى جانب قائدِه عبدِ الرحمنِ الذي حاول جـــهدَه أن يجمعَ جندَهُ، ويعيدَهم إلى مواقِعِهم للثباتِ فـــي وجـــهِ العدوِ، ولكن عبثاً، وأعاد المحاولةَ مرةً بعد أخرى جاهداً أن يصرفَ اهتمامَهم عن الغنائمِ فلم يوفّقْ.

وبينما هو في اجتهادِهِ يقاتل حيناً، ويدفــعُ جمـــوعَ الفرنجةِ الذين تكاثروا عليه وأحاطوا به من كلِ جانبٍ.

وينادي جنودَهُ أن يتركوا الغنـــائمَ ويعـــودوا إلـــى مواقِعِهم، فإن الهجومَ الذي قام به العدوُّ على الغنائمِ مـــا هو إلا خطةٌ للإيقاعِ بهم وخلخلةِ صفوفِهم فلم يوفقْ في ذلكِ، بل أصابَه سهمٌ أودى بحياتِهِ.

وسقط البطلُ شهيداً مجيـداً بعـد أن أبلـى بـلاءً عظيماً، وثبت ثباتاً مشرفاً، وصمـد صمـودَ الأبطـالِ والشجعانِ بعد أن أعطى دروساً بالغةً فـي التضحيـةِ والفداءِ، والبطولةِ والشهامةِ والإباءِ، وكـان ذلـك فـي رمضانَ سنةَ /١١٤/ للهجرةِ.

فرحم اللهُ تعالى الأميرَ عبدَ الرحمنِ الغافقيَّ وجميعَ شهداءِ الإسلامِ رحمـةً واسـعةً، ورضـي اللهُ عنـهم، وحَشَرَهم يومَ القيامةِ مع الذين أنعَمَ اللهُ عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداءِ والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

لقد كان مصرعُ البطلِ عبدِ الرحمنِ نذيرَ شؤمٍ على أفرادِ جيشِهِ، إذِ انهالَ عليهمُ العدوُ من كلِ جانبٍ، وأعمل

فيهمُ الرماحَ والسيوفَ تحصيدُهم حصداً (وكان أمرُ اللهِ قدراً مقدوراً)[1] (ليقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً)[2]صدق الله العظيم.

(مصيرُ جيشِ المسلمين)

صبر المسلمون صبراً جميلاً، وثبتوا ثباتاً مشرفاً بعد مصرعِ أميرِهم وصمدوا في وجه عدوهم حتى خَيَّمَ عليهمُ الظلامُ الذي فصل بينهم، فجعلوا يتسللون بسرعةٍ مستترين تحت جنحِ الظلامِ، واندفعوا في تقهقرِهِم نحوَ الجنوبِ، وحين تأكدوا أن العدوَّ لا يتبعُهم تمهلوا في سيرِهِم، ثم حطوا رحالَهم ليأخذوا وافراً من راحةِ الجسمِ والأعصابِ، ليستردوا قوتَهم، ويستجمعوا صفوفَهم من جديدٍ، ويبدو أن عدداً منهم شَرَدَ عنِ الجيشِ فضلَّ

---

(1) الآية /٣٨/ من سورة الأحزاب.

(2) الآية /٤٢/ من سورة الأنفال.

الطريق فوقع في أيدي العدو، وتابع الجيش طريقه حتى بلغ أربونة، وبذلك انتهت معركة بلاط الشهداء التي أسفرت عن مأساة كبيرة للمسلمين، خلفت في قلوبهم جروحا عميقة، وأحزانا شديدة، وآلاما ممضة حتى إن خبر هزيمتهم تردد في غالة الجنوبية وإسبانيا الشمالية. فطمع أهل تلك البلاد بالمسليمن، وتواثبوا عليهم من كل ناحية، وتخطفوا فلول قواتهم المتراجعة، وهذا أمر طبيعي يمكن أن يحدث لكل جيش مني بهزيمة وقد قتل قائده، وتفرقت أفراده، وفقد هيبته، وتعمقت آلامه، وتلاشت آماله. وحينما أسفر الصبح وأرسل خيوطه النقية البيضاء على أرض المعركة، التي خيم عليها صمت وهدوء فيهما هيبة وجلال، نهض الفرنجة لاستئناف القتال فلم يجدوا من المسلمين أحدا، فأصابتهم

الدهشةُ والاستغرابُ، فتقدموا على حذرٍ من مضاربِ المسلمين، فإذا هي خاليةٌ منهم.

ويصفُ الدكتور مؤنس المشهدَ فيقولُ: (وقد فاضَتْ بالغنائمِ والأسلابِ والخيراتِ، فظنوا أن في الأمرِ خدعةً، وتريثوا قبل أن يجتاحوا المعسكرَ وينتهبوا ما فيه، ولم يفكرْ أحدٌ منهم في تتبعِ المسلمين، إمّا لأنهم خافوا أن يكونَ العربُ قد نصبوا لهم بهذا الانسحابِ شركاً، أو لأنَّ مارتل تبينَ ما نزل بالمسلمين ورأى أنه يستطيعُ العودةَ إلى الشمالِ مطمئناً أنهمُ انصرفوا عنه وعن بلادِه.

(على هامشِ المعركةِ)

من المؤسفِ أن هزيمةَ المسلمين في معركةِ البلاطِ كانَتْ مروعةً حقاً، وإننا حين نذكرُها نذكُرُها بمزيدٍ من الأسى واللوعةِ لما خَلَّفَتْ وراءها من جروحٍ عميقةٍ وأحزانٍ أليمةٍ لا تزالُ آثارُها في نفوسِ المسلمين إلى اليومِ، حتى إنها بَلَغَتْ من الشدةِ أن المؤرخين العربَ أحجموا عن ذِكرها من فرطِ الألم والتشاؤمِ، لدرجةِ أن الباحثين العربَ حيث ذكروا هذه الحادثةَ إنما اعتمدوا على المصادرِ الغربيةِ والنصرانيةِ، ذلك أنَّ كلَّ ما تقدمُهُ الروايةُ العربيةُ عن هذه المعركةِ لا يزيدُ في مجموعِه على عشرين سطراً موزعةً في نحو سبعةِ مراجعَ أو ثمانيةٍ، ولم تذكرْ هذه المراجعُ أو الرواياتُ العربيةُ إلاّ أنّ المسلمين هُزموا في هذه المعركةِ هزيمةً مروعةً،

حتى إنّ بعضَ المؤرخين العرب يخطئون في تحديدِ سنةِ وقوعِها، وبعضُهم يذهبُ إلى أن قائدَ المسلمين في تلــك الموقعةِ لم يكنْ عبدَ الرحمن الغافقي، وإنما هو محمدُ بنُ عُبيدِ اللهِ بنِ الحبحاب، وهي شخصيةٌ لم تسمعْ بها إلــى الآن في حوادثِ الأندلسِ.

يقولُ الدكتور مؤنس مستغرباً: (لم تقدم لنا الروايــةُ الإسلاميةُ إلا إشاراتٍ عابرةً مبتسرةً عن هــذه الواقعــةِ الفاصلةِ، ولا يُعلِّلُ هذا الإغفال الغريبُ بمجــردِ رغبــةِ الرواةِ المسلمين في إخفاءِ معالمِ هذا الحادثِ المحــزنِ، لأن هؤلاءِ المؤرخين قدموا لنا تفاصيلَ طيبةً عن هزائــمَ أخرى نزلَتْ بالإسلامِ على يــدِ النصرانيــةِ، كهزيمــةِ الخندقِ،[1] ومأساةِ العقابِ، وكانَتْ هذه الأخيرةُ أخطــرَ

---

[1] وقعت في شوال سنة سبع وعشرين وثلاثمائة في خلافة عبد الرحمن الناصر.

من بلاطِ الشهداءِ، وكانَتْ مصيبةُ الإسلامِ فيها أعظــــمَ، فكان إخفاءُ معالمِها أولى)[٢]

وكذلك لم تذكرْ لنا المراجعُ العربيةُ إلاّ القليـــلَ... القليلَ عن حياةِ البطلِ عبدِ الرحمن الغافقي، فما السرُ في ذلك..؟

لقد علل ذلك الدكتور مؤنس وكان موفقاً في ذلـــك إذ قال: (لا نزاعَ في أن عبدَ الرحمنِ الغافقيَّ كان أقـــدرَ قائدٍ عسكري عرفَتْهُ الأندلسُ في عصرِ الـــولاةِ، ومـــن المؤسفِ أن أخبارَه لدينا قليلةٌ جداً لا تتناسبُ مع الـــدورِ الكبيرِ الذي قام به في تاريخِ الإسلامِ، ويبدو أن كارثـــةَ بلاطِ الشهداءِ التي خَتَمتْ حياة الغافقي كانَتْ أليمةَ الوقـــعِ عند مؤرخينا، فأوجزوا الكلامَ عنها قدرَ الطاقةِ، وأصاب

[٢] فجر الأندلس.

الإيجاز سيرة عبد الرحمن، فتعمدوا الاكتفـــاء بمجـــرد الإشارة إليه مع عظيم تقديرهم له)[1]

(أسباب هزيمة المسلمين)
(في معركة البلاط)

لها عدة أسباب نوجزها فيما يلي:

أولا: الفارق الكبير بين جيش الفرنجة الذي كـــان يفوق بكثير عدد جيش المســـلمين، وتزعـــم المراجـــع النصرانية أن عدد المسلمين كان يومئذ أربعمئـــة ألـــف مقاتل، وهذا رقم خيالي بالمقارنة بيـــن هـــذه الرواية والرواية العربية التي تحدد عدد الجيش الإسلامي بأنـــه يتراوح بين سبعين ألفا ومئة ألف، ومعظمهم كان مـــن

---

(1) فجر الأندلس.

البربرِ لأن الكثيرين من عربِ إفريقيةَ والأندلسِ كـــانوا في تلك الفترةِ تحت سيطرةِ المنازعاتِ العصبيةِ والقبليـةِ ومنهم مَنْ كان مشغولاً بالحروبِ في مناطقَ أخرى.

ثانياً: ثورةُ مونوسةَ.

كان مونوسةُ هذا بربرياً وكان على علاقةٍ طيبـــةٍ مع الدوقِ أودو، وقد أشعل مونوسةُ نارَ الثـــورةِ علـــى العربِ، ولم يكنْ للأميرِ عبدِ الرحمنِ الغافقي أن يســكتَ عنها ويقفَ منها موقفَ المتفرجِ، بل قاومَـــها وأرســل عدداً كبيراً من الجندِ لإخمادِها الأمــرُ الــذي أغضــب الدوق أودو لما أصاب حليفَهُ، فأصبح يتوقعُ الشرَّ مـــن ناحيةِ العربِ، ويظهرُ لهمُ الجفوة، وبدا للعرب المســلمين أنْ لا مفرَّ من وقوعِ حربٍ بينهم وبين الدوقِ، ولهذا بدأه عبدُ الرحمنِ بالحربِ فاتجه بجيشِهِ إلى آرل ففتحها، ثـــم

إلى أقطانية (أكويتين) ومنها إلى بوردو كما تقدم، وفـــر جنود هذه المناطق إلى الشمال، يستنجدون ملك الفرنجــة وانضموا إلى جيشه فتشكل لهم جيش كبير قـــادر للوقــوف أمام المسلمين كما تقدم تفصيله في موضعه.

ومن الجدير بالذكر أن الـــدوق أودو كـــان علـــى علاقة طيبة مع المسلمين، وكانت مصلحتـــهم تقتضـــي المحافظة على صداقته لكي يكون لهم عونا على حـــرب الفرنجة والخلاص منهم. فلو كان عبد الرحمن الغـــافقي سياسيا كما كان قائدا عسكريا ممتازا لحافظ على علاقته مع أودو، ولكن حركة مونوسة أفسدت الأمر كله، أضف إلى ذلك ما كان بين العرب والـــبربر مـــن التبـــاغض والتحاسد، وإلى ما كان من علاقة صداقة ومصاهرة بين مونوسة والدوق أودو مما يجعل الأمر في غاية التعقيـد، لا سيما وأن ثورة مونوسة بلغت ذروتها.

وعلى أي حال كانت ثورة مونوسة وقيام عبد الرحمن للقضاء عليها من أسباب فشل المسلمين في حملتهم على غالة، وكان لها أثرها البليغ في هزيمة بلاط الشهداء.

فبدل أن يكون جيش المسلمين كله صفا واحدا في قتال الفرنجة، أصبح مجزأ، جزء يقاتل البربر، وآخر مع عبد الرحمن في غالة، وثالث يقاتل في أطراف البلاد.

ولو كان المسلمون أكثر سياسة لعالجوا أمر مونوسة بالحكمة وحافظوا على صداقة الدوق أودو فبدل أن يكون معهم يقاتل لصالحهم، فقدوا صداقته وجعلوه خصما لهم يقاتلهم وجها لوجه، بل استعان عليهم بخصمه شارل مارتل فكانت النتيجة مأساة كبرى

وصمت المسلمين وخلفت في نفوسهم أحزانا أليمة، وجعلت في قلوبهم جروحا بليغة، يحسون بذل النكسة، ومرارة الهزيمة، ويعتبرونها عارا إلى يوم القيامة.

ثالثا: الغنائم

كانت الغنائم في كثير من معارك المسلمين وغزواتهم العقدة الكبرى، والعقبة الكؤود، فكان تكالبهم عليها وحرصهم على الاحتفاظ بها نقطة عيب خطيرة، وظاهرة سيئة تضعف من قوتهم، وتقلل من أملهم في النصر بل وتنقص من هيبتهم في قلوب العدو.

فقد حرصوا عليها منذ القديم وفي معركة أحد، حين نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن مغادرة مواقعهم، وإن رأوهم ظفروا بالعدو وانتصروا عليه،

فلما بدأتِ المعركةُ وأنزل اللهُ نصرَهُ هرب المشركون لا يلوون على شيءٍ، ونساؤهم يدعون بالويلِ، بعد فرحِهِم وضربِهِم بالدفوفِ، يقولُ البراءُ: (فلما لقيناهم هربوا حتى رأيتُ النساءَ يشتدِدْنَ في الجبلِ رفعْنَ عن سوقِهِنَّ قد بَدَتْ خلاخُلُهنَّ)[1]

وشرع المسلمون ينتهبون عسكرَ المشركين، فقال أصحابُ عبدِ اللهِ بنِ جبيرٍ، وهمُ الرماةُ الذين عينهُمُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على الجبلِ لحمايةِ ظهرِ المقاتلين: الغنيمةَ، أي قومُوا للغنيمةَ، ظهر أصحابُكم فما تنتظرون...!!

فقال أميرُهم عبدُ اللهِ بنُ جُبَيرٍ: أنسيتم ما قال لكم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ...؟

---

[1] رواه البخاري، وانظر فلسفة البلاء.

قالوا: واللهِ لنأتِينَّ الناسَ فلنصيبَنَّ من الغنيمةِ.[1]

فأخْلَوا مواقعَهم، وغادروا الجبلَ، فانتبه لذلك خـالدُ ابنُ الوليدِ فكرَّ بالخيلِ وتبِعه عكرمةُ بـنُ أبـي جـهلٍ، فحملوا على مَنْ بقيَ من الرماةِ فقتلوهم جميعاً.

تماماً كما حدث في معركةِ بلاطِ الشهداءِ، وكـأنَ التاريخَ يعيدُ نفسَهُ...!!

وكذلك كان حرصُ المسلمين على حمايةِ الغنـائمِ التي جمعوها من النواحي أثناءَ غزوِهم لآرل، وبـردال، أوبوردو وغيرِهما قبل لقاءِ الفرنجةِ في معركةِ البلاطِ.

يقولُ الدكتور مؤنس: (وتتفقُ المراجعُ جميعاً علـى أن الجيشَ الإسلاميَّ كان يجـرُّ وراءهُ قطـاراً عظيمـاً محملاً بالغنائمِ والأسلابِ من كلِ صنفٍ)

---

[1] رواه البخاري، وانظر فتح الباري وفلسفة البلاء.

ثم يقولُ في موضعٍ آخرَ: (ويبـــــدو أنَّ استمســـاكَ الجند بهذه الغنائمِ كان عظيماً، لأنهم حملوها معهم حتـــى نهرِ اللوارِ، ولو أحسنوا لبعثوا نفراً منهم ليودعَها أربونةَ أو برشلونةَ حتى يطمئنوا وتخلو أيديهم للعملِ المقبــــلِ، ولكنهم كانوا أحرصَ عليها من أن يفارقوها، بل ســنرى أنهم كانوا أحرصَ عليها على النصرِ والظفرِ، فكان هــذا الحرصُ في ذاتِهِ من أشدِّ أسبابِ هزيمتِهِم، لأن عدوَّهــمُ استشعر هذا الحرصَ منـــهم وعــرف كيــف يســتغلُّهُ لصالحِهِ)[1]

وذكر المقري في نفـــح الطيـــبِ قولَـــهُ: (وقـــال الحجازيُّ في المسهبِ: إن موسى بنَ نُصَيرٍ نصــــرَهُ اللهُ نصراً ما عليه مزيدٌ، وأجفَلَتْ ملوكُ النصارى بين يديــه،

---

[1] فجر الأندلس.

حتى خرج على بابِ الأندلسِ الذي في الجبلِ الحاجزِ بينها وبين الأرضِ الكبيرةِ، فاجتمعَتِ الإفرنجُ إلى ملِكِها الأعظمِ مَارله[1]ـ وهذه سمَةٌ لملِكِهِم، فقالَتْ له: ما هذا الخزيُ الباقي في الأعقابِ...!!...؟؟ كنا نسمعُ بالعربِ ونخافُهُم من جهةِ مطلِعِ الشمسِ حتى أتَوا من مغربِها، واستولَوا على بلادِ الأندلسِ وعظيمِ ما فيها من العدةِ والعددِ بجمعِهِمُ القليلِ، وقلةِ عدتِهِم، وكونِهِم لا دروع لهم...!!

فقال لهم ما معناه: الرأي عندي أن لا تعترضوهم في خرجتِهِم هذه، فإنهم كالسيلِ يحملُ مَنْ يصادرُهُ، وهم في إقبالِ أمرِهِم، ولهم نياتٌ تغني عن كثرةِ العددِ، وقلوبٌ تغني عن حصانةِ الدروعِ، ولكن أمهلوهم حتى

---

[1] هو شارل مارتل، لأن مَارلَهْ لقبٌ لملكِ الإفرنجِ.

تمتلئ أيديهم من الغنائمِ، ويتخذوا المساكنَ، ويتنافسوا في الرياسةِ، ويستعينَ بعضُهم على بعضٍ، فحينئذٍ تتمكنون منهم بأيسرِ أمرٍ)[1]

ويعلقُ المقري على هذا الكلامِ بعد أنْ ذكرَهُ، فيقولُ:

(فكان واللهِ كذلك بالفتنةِ التي طرأتْ بين الشاميين والبلديين والبربرِ والعربِ، والمضريةِ واليمنيةِ، وصار بعضُ المسلمين يستعينُ على بعضٍ بمن يجاورُهم من الأعداءِ.)[2]

---

[1] نفح الطيب. جـ ١ ـ ص٢٧٤-٢٧٥.

[2] نفح الطيب جـ ١ ص٢٧٥.

تلكم هي أهمُّ أسبابِ هزيمةِ المسلمين في معركةِ بلاطِ الشهداءِ، فلولا حركةُ مونوسةَ، وظهورُ العصبيةِ القبليةِ بين العربِ والبربرِ، واستعجالُ عبدِ الرحمنِ بقتالِ الفرنجةِ، وتكالبُ المسلمين على الغنائمِ لتغيرَ سيرُ المعركةِ ومَنْ يدري فقد يكونُ لصالحِ المسلمين...!!

نتائجُ المعركةِ

أعني نتائجَ ما بعدَ المعركةِ بالنسبةِ للمسلمين والفرنجةِ، فهي تعتبرُ في نظرِ المؤرخين من المعاركِ الفاصلةِ، وفي ذلك يقولُ المؤرخ المشهور جيبون: (لو انتصر العربُ في تور بواتييه لتُليَ القرآنُ وفُسِّرَ في اكسفورد وكمبردج)[1] أما قيمتُها بالنسبةِ للمسلمين فهي

---

[1] مجلة العربي

أنهم لم يفكروا بعدها في محاولةِ احتلالِ فرنسا، ولم يحاولوا الاقترابَ من اللوارِ بعد ذلك أبداً، ولو كانت هزيمتُهم هناك يسيرةً لحاولوا مرةً أخرى، ولما ترددوا في العودةِ.

وقد ترتب على هزيمةِ معركةِ البلاطِ، أن سارع عبيدةُ بنُ عبدِ الرحمنِ عاملُ الخليفةِ على إفريقية بتوليةِ عبدِ الملكِ بنِ قَطَنٍ الفهريِّ الذي أعلن الجهادَ فوراً ليثأرَ للمسلمين في هزيمةِ البلاطِ، وقد توجَّهَ بنشاطِهِ أولاً إلى نواحي شمالي الأندلسِ، فهاجم نواحيَ أرغونَ ونبره، ثم عبر البرتات وأفضى إلى لانجدوك، واهتمَّ بتحصين المعاقلِ التي كانَتْ ما تزالُ في أيدي المسلمين، وبذلك استعاد المسلمون عافيتهم، وارتفعَتْ معنوياتُهم، وشعروا بوجودِهِم وأحسُّوا بالعزةِ يسري في نفوسِهِم، وحداهُمُ

الأملُ في استردادِ مجدِهِـــم، وجمـــعِ قواتِــهِم للانتقـــامِ لكرامتِهِم، والثأرِ لهزيمتِهِم.

أما قيمتُها بالنسبةِ للإفرنجِ:

فقد رجع شارل مارتل وأودو منتصرَين، ولكنَّ هذا النصرَ أشبهُ ما يكـــونُ بالهزيمـــةِ، فقـــد كــان النـــاسُ يبغضونهما، ويتمنون لهما الهزيمـــةَ، فكـــانوا يقـــاتلون معهما بسيوفِهِم وقلوبُهم تلعنُها.

يقولُ الدكتور مؤنس: (وكانت نواحي ســـبتمانيةَ إذ ذاك في فوضى شاملةٍ بسببِ الحروبِ المتواليةِ، وبســـببِ الاضطرابِ الذي نجم عن هزيمةِ البلاطِ وتقهقرِ جيــوشِ المسلمين، وكان الظاهرون من أهلِها قدِ انتهزوا فرصـــةَ تلاشي الدوق أودو لكي يتوزعوا النواحيَ فيمـــا بينـــهم

ويعلنوا أنفسَهم أكناداً، أو أدواقاً بـــها، واحـــتربوا فيمـــا بينهم، وكانوا جميعاً يكرهون أودو ومَارله معاً، وخشـــوا أن تؤديَ هزيمةُ المسلمين إلى وقوعِهِم تحـــت ســـلطانِ أحدِهِما، فجعلوا يستعينون بـــالعربِ المتحصنيـــن فـــي أربونةَ.

وتذكرُ المراجعُ منهم دوقاً يُسمّى (ماورنت) اتخـــذ لقبَ دوق مرسيلية وحالفَ جندَ المسلمين وطمـــع فـــي السيادةِ على بروفانسَ كلِّها.

وكان مَارله مشغولاً إذ ذاك بتقريرِ ســـلطانِهِ فـــي ولايتي بورجوينا وليونَ اللتين تمَّ لـــه فتحُـــهُما، وكـــان المسلمون قد فتحوهما ثم تخلَّوا عنـــهما بعـــد الهزيمـــةِ وخلّفوهما في فوضى شاملةٍ، فأقام مَارله فيهما نفراً مـــن المخلصين له يُسَمَّون (الخلصاءَ)، وفرض طاعته علـــى

أشرافِهِما، ثم اشتغل بعد ذلك بأمرِ أهلِ فريزيا ومضى لإخضاعِهِم وأنفق في ذلك وقتاً ليس بالقصير، وأحَبَّ أن يضمنَ ولاءَ جندِهِ فأطلق أيديَهم في ذخائرِ الكنائسِ وأملاكِها، فأغضب بذلك القساوسة وعامةَ الناسِ، وكان جندُه الفرنجةُ يعتبرون أنفسَهم سادةَ البلادِ المفتوحةِ، وكان مَارله يميزُ جندَهُ على أهلِ غالةَ الأصليين، ويحرمُ عليهمُ الزواجَ منهم ويلزمُهم بالعيشِ بعيداً عنهم، فأبغضهُ أهلُ جنوبي غالةَ، وفتر حماسُهم نحوَه، وهكذا خسِرَ ولاءهم، وأعان ذلك العربَ على الثباتِ في هذه النواحي، بعد أن كان أمرُهم قد تحرجَ، وتواتر عليهم تواثبُ الناسِ، حتى غدَوا كالمحصورين في أربونةَ وغيرِها مما كان بيدِهم من المعاقلِ)[1]

---

[1] فجر الأندلس.

في هذه الفترة كان يقود جند المسلمين في أربونة وغالة، رجل شجاع قوي المراس، شديد البأس يقال له يوسف الفهري الذي كان على علاقة طيبة مع ما ورنت دوق مرسيلية، ومضى بجنده يطوف البلاد، فعبر الردانة ودخل آرل التي سقطت بأيدي الفرنجة بعد هزيمة البلاط فهدمها ودك حصونها، وأطلق يد جنده فيما حولها حتى جعلوها قفرا خرابا، ثم توغل في يروفانس واستولى على بلدة فرنا بعد حصار طويل، والتي تسمى اليوم (سانت ريمي) ثم توجه نحو أبنيون فاقتحمها، فتصدى له أهلها ودافعوا عنها دفاعا عنيفا، ثم سقطت في أيدي المسلمين.

ومضى يوسف يفتح البلاد حتى انتهى إلى نهير الديورانس، وبذلك يكون قد استعاد جزءا عظيما مما

فَقَدَهُ المسلمون بعد وقعةِ البلاطِ، وقـــدِ انتَشــرتْ أنبـــاءُ انتصاراتِ يوسفَ في نواحي تلك البــلادِ حتـــى خافَــهُ أهلُها، فلم يجرؤْ أحدٌ أن يعترضَ طريقــــهُ، أو ينازعَــهُ السلطانَ.

هذا بالنسبةِ للمسلمين، أمّا ما كان من أمرِ مَارلـــه، فقد لزمَ السكونَ، ولم يقمْ بأيِّ عملٍ يُذكَرُ.

يقولُ الدكتور مؤنس: (وقد لبث مَارله ساكناً أثنـــاءَ ذلك كلِهِ، ولم يفكرْ في المسير للقاءِ المسلمين مع نهمِـــهِ إلى الأرضِ وطعمِهِ في توسيعِ سلطانِهِ بأي سبيلٍ، وبدلاً من ذلك أسرع إلى أقطانيةَ حينما بَلَغَهُ موتُ أودو ســـنةَ /٧٣٥م، وأرغم ابنَهُ على حلِفِ يمينِ الـــولاءِ لـــه، ولا

يُعلّلُ انصرافهُ عنِ العربِ وتجنبُهُ لقاءهم إلا بأنه قد ذاق مرارةَ الحربِ معهم وعرف جَلَدَهم وقدرتَهم فصار يتجنبُهُم، وقد رأيناه يتخوّفُ تتبعَهُم بعد موقعةِ البلاطِ مما يدلُّ على أن تجربةَ البلاطِ لم تكنْ عسيرةً على العربِ وحدَهم، بل على مَارله أيضاً، وكان هو أعرفَ الناسِ بأنه لولا تفطُنُهُ إلى حيلةِ مهاجمةِ معسكرِ الغنائمِ لما استطاعَ كسبَ معركةِ البلاطِ، وقد كان يقودُ المسلمين فيها بطلٌ من أبطالِهِم هو عبدُ الرحمنِ الغافقيُّ، وهو جيشٌ وحدهُ.)[1]

وعلى أي حالٍ فالمسلمون ما زالوا في أوجِ قوتِهِم، ومضاءِ عزيمتِهِم، وشدةِ عافيتِهِم، وقدِ استطاعوا أن

---

[1] فجر الأندلس.

يبنوا جيشهم، ويوحدوا صفهم، ويستعيدوا مجدهم، وهاهم الآن يشنون الإغارات، ويفتحون البلاد، ويستردون ما أخذ منهم بعد نكسة البلاط حتى إنهم حين كانوا ينسحبون من أرض المعركة بعد مصرع قائدهم عبد الرحمن، يدخلون المدن التي يمرون بها في طريقهم ويفتحونها رغم ما لحق بهم من هزيمة وما أصابهم من ضعف وخذلان، وهناك رواية نصرانية تقول: (اندفع المسلمون في تقهقرهم نحو الجنوب مسرعين، واتجهت جموعهم نحو أربونة فمروا على مقربة من (جيريه)، وغزوا في طريقهم بلدة ليموزين، وخربوا كنيسة سولنياك، وحينما أحسوا أن أحدا من النصارى لا يتبعهم تمهلوا في سيرهم ليستجمعوا صفوفهم من جديد)[1]

---

(1) فجر الأندلس.

وهاهم الآن يغزون البلاد ويفتحونها، ويوقعون الخوف والرعب في قلوب أهلها لا يجرؤ أحد منهم أن يعترضهم، حتى مارله نفسه أخذ يخشاهم على نفسه فلم يحاول أن يصطدم بهم لما لمس من عنادهم وقوة مراسهم، وشدة ثباتهم.

(عبد الملكِ بنُ قَطَن)

علمنا مما تقدم أنَّ عبدَ الملكِ بنَ قَطَن عيّنهُ عُبيدة ابنُ عبدِ الرحمنِ عاملُ الخليفةِ على إفريقيةَ، وأنه هو الذي ثأر للمسلمين في هزيمةِ البلاطِ، علمنا ذلك ولم نعلمْ مَنْ هو، ولم نعلمْ شيئاً عن حياتِهِ، فلنُصْغِ إلى المقري وهو يعرفُنا به.

يقولُ: (قدم الأندلسَ في شهرِ رمضانَ سنةَ أربعَ عشرةَ ومائةٍ فكانت مدةُ ولايتِهِ عامين، وقيل: أربع سنين، ثم عُزِلَ عنها ذميماً في شهرِ رمضانَ ست عشرةَ ومائةٍ.

قال: وكان ظلوماً في سيرتِهِ، جائراً في حكومتِهِ، وغزا أرضَ البشكنسِ فأوقعَ بهم.

قال: وذكر ابنُ بشكوال: أنه لما عُزِلَ وولي عقبةُ ابنُ الحجاجِ وَثَبَ ابنُ قَطَن عليه فخلعه، لا أدري أقتلَهُ أم أخرجه، وملك الأندلسَ بقيةَ إحدى وعشرين ومائةٍ إلى

أن رحل بلجُ بنُ بشرٍ بأهلِ الشامِ إلى الأندلسِ فغلبه عليها، وقتل عبدَ الملكِ بنَ قطن، وصُلِب في ذي العقدة سنةَ ثلاثٍ وعشرين ومائةٍ بعد ولايةِ بلجٍ بعشرةِ أشهرٍ، وصُلِبَ بصحراءِ ربَضِ قرطبةَ بعدوةِ النهرِ حيالَ رأسِ القنطرةِ، وصلبوا عن يمينِه خنزيراً وعن يسارِه كلباً، وأقاموا شلوَه على جذعٍ إلى أن سرقَهُ مواليه بالليلِ وغيَّبوه، فكان المكانُ بعد ذلك يُعرَفُ بمصلَبِ ابنِ قَطَنٍ، فلما وليَ ابنُ عمِهِ يوسفُ بنُ عبدِ الرحمنِ الفِهري استأذنه ابنُهُ أميةُ بنُ عبدِ الملكِ، وبنى فيه مسجداً نُسِبَ إليه، فقيل: مسجدُ أميةَ، وانقطع عنه اسمُ المصلبِ وكان سنُّ عبدِ الملكِ عند مقتلِهِ نحو التسعين.)[١]

---

[١] نفح الطيب جـ ٣ ص ١٨-١٩

وقد تقدم معنا أنه توجَّهَ بنشاطِهِ إلى نواحي شمالي الأندلسِ، فهاجم نواحي أرغون ونبره وجبالِ البرت ليكسر شوكةَ أهلِها، وكانوا قوماً أقوياءَ شديدي المراسِ، قد أمضَوا أياماً وسنينَ كثيرةً يتدربون على قتالِ الجبالِ، وحروبِ العصاباتِ، ولم يشتبكْ معهم أحدٌ بقتالٍ إلا غلبوه، وقد لقيَ عبدُ الملكِ في حروبِهِ معهم بلاءً شديداً، وهزموه في معركةٍ كبيرةٍ.

وقد وصفه الدكتور مؤنس بقولِهِ: (وكان بطبعِهِ رجلاً سيِّئ السياسةِ عنيفاً ظلوماً، فلم تلبثِ الشكوى منه أن وصلَتْ إلى إفريقيةَ واتصلَتْ إلى دمشقَ، وانضافَتْ إلى ذلك هزيمتُهُ فعجلَتْ بعزلِهِ، وكانَتْ ولايةُ إفريقيةَ قد صارَتْ إلى عُبَيدِ اللهِ بنِ الحبحاب، فعجل بعزلِ عبدِ

الملكِ، وبعث على الأندلسِ مولاه عقبـــةَ بـــنَ الحجـــاجِ السلولي وكان أفضلَ من عبدِ الملكِ من كلِ وجهٍ.)[١]

عقبةُ بنُ الحجاج السلولي

قدم عقبةُ بنُ الحجاجِ الأندلسَ والياً من قبلِ عُبيــــدِ اللهِ بنِ الحبحاب صاحبِ إفريقيةَ، ودخلـــها ســـنةَ ســـبعَ عشرةَ ومائةٍ، فأقام بها سنينَ محمودَ السيرةِ، محبوباً مـــن قِبَلِ الرعيةِ، مثابراً على الجهادِ، مفتتحـــاً للبـــلادِ، قـــال المقري: (حتى بلغ سكنى المســـلمين أربونـــةَ، وصـــار رباطُهم على نهرِ رودنة[٢]، فأقام عقبةُ بـــالأندلسِ ســـنة إحدى وعشرين ومائةٍ، وكان قدِ اتخذ بأقصى ثغرِ الأندلـــسِ

---

[١] فجر الأندلس.

[٢] رودنة: وفي بعض المصادر، ردانة، ولعل المراد نهر الرون.

الأعلى مدينة يقال لها: أربونة كان ينزلها للجهاد، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام ويبين له عيوب دينه، فأسلم على يده ألفا رجل، وكانت ولايته خمس سنين وشهرين.)[١]

لقد كان عقبة بن الحجاج بطبعه رجلا شجاعا محبا للفتح والجهاد، مثله في ذلك مثل عبد الرحمن الغافقي، وكان مسلما صادقا مخلصا لدينه، متفانيا في القيام بأعباء الإمارة ومسؤولية الحكومة، وكان عبد الملك بن قطن قد أفسد الأمور، ونفر أهل الأندلس عربا وغير عرب، مسلمين وغير مسلمين، فصرف عقبة جل اهتمامه، وسعى جاهدا لإصلاح ما أفسده عبد الملك

---

(١) نفح الطيب جـ ٣ ص١٩.

بإقرارِ الأمورِ، وإقامةِ العدلِ وتطبيـــق المســـاواةِ بيـــن الناسِ، فلما اطمأنَّ إلى اســـــتتبابِ الأمــنِ، واســـتقرارِ الأمور، تفرَّغ للجهادِ في ســـــبيلِ الله، يقـــولُ الدكتـــور مؤنس: (ثم تجرَّدَ للغزو في شمالي الجزيرةِ وصرف همَّـــهُ أولَ الأمرِ نحو الثائرين في أشتريس، فلما أوفى على غايتِـــهِ في هذه الناحيةِ انحدر إلى الشرقِ، فنزل سرقسطةَ وتوجَّـــهَ منها نحو البرتاتِ وغالةَ.

وكان المسلمون بعد أن ثبتوا أقدامَهم في بروفـــانسَ قد تحصنوا في المدائنِ الكبرى وحولوها إلى رباطـــاتٍ، ثم جعلوا يرقبون الحوادثَ، فلما أقبل إليهم عقبةُ بحماسِهِ ورغبتِهِ في الجهادِ نهضوا معه نحو ناحيـــةِ الدوفينيـــه، واستولى عقبةُ على (سان ــ بول ــ تروا ــ ودونزيـــر وخربوهما، ثم اتجه نحوَ الشـــمالِ فـــي جـــرأةٍ وحـــزمٍ فاستولى على فالانسَ، وخرَّبَ جميعَ الكنائسِ المحيطـــةِ

بفيين، وكان من معه من الجند ينتظرون هذه الفرصة بفارغ الصبر ليدركوا ثأر معركة البلاط، فمضوا معه يشتدون لا يكادون يقابلون شيئا عامرا إلا خربوه.

وصعد معهم عقبة مع ردانة حتى أعاد فتح إقليم بورجوينا كله، واستولى على ليون من جديد، وامتد جناح المسلمين الشرقي في إقليم دوفينيه حتى وصل إلى بيدمنت في شمالي إيطاليا، وبدا أن المسلمين سيستعيدون مراكزهم كلها في غالة عن قريب.)[١]

---

[١] فجر الأندلس.

استئنافُ القتالِ بين مَارله والمسلمين

أقلَقَتِ الأنباء مَارله بأنَّ المسلمين جددوا نشـــاطَهم، وأخذوا يغيرون على البلادِ ويستعيدونها بلداً بعد آخـــرَ، فشعر بالخطرِ يقتربُ منه، فقرر أن يتحركَ مـــن جديـــدٍ ليوقفَ زحفَ المسلمين المتواصل، فاستغلَّ الهدنةَ القائمةَ . بينه وبين خصومِهِ في شمالِ أوستراسيا وشـــرقِها، فجمـــع جموعَهُ وتأهَّبَ للمسيرِ للقاءِ المسلمين، فأرســـل أولاً أخـــاه شلدبراند، وكان ساعدَه الأيمنَ في جميعِ حروبِهِ، وأعَدَّ لـــــه جيشاً كثيفاً، وكتب إلى ملكِ اللومباردِ في شمالِ إيطاليا يسألُهُ المسيرَ لمهاجمةِ جناحِ المسلمين الشرقي المتحصنِ في جبـلِ بيد منت.

ولْنترك تفاصيلَ ذلك للدكتور مؤنس الذي يقولُ:

(وانحدر شلدبراند مع الرونِ حتى وصلَ أبنيـــــون وبدأ حصارَها، وكان المسلمون قد أحكمـــوا تحصينَـــها

فعجز الجيشُ الفرَنجي عنِ اقتحامِها، واضطر مَارله إلى المسيرِ بنفسِهِ في جيشٍ جديدٍ، وشدَّدَ الأخوان الحصـــارَ واستعانا بآلاتِهِ، وتقدم لويتبراند في نفسِ الوقتِ وهـــاجم المسلمين عند بيدمنت، وأمام هذا الضغـــطِ الشـــديدِ لـــم يستطعِ المسلمون الاستمرارَ في الدفاعِ عـــن أبينـــون، ولكنهم لم يسلموا البلدَ، واستماتوا في الدفاعِ عنها حتـــى اقتحمها الفرنجةُ عليهم.

ويصفُ صاحبُ ذيلِ مدونةِ فريجداريـــوس اســـتيلاءَ مارله على البلدِ بقولِهِ:

(وأحاط كـــارولوس (مارلـــه) بـــالبلدِ وحـــاصر أسوارَها حصاراً حديدياً بجيـــشٍ ضخـــمٍ وأبـــواقٍ ذاتِ أصواتٍ عاليةٍ وآلاتِ حربٍ، وأدواتٍ مفزعـــةٍ مركبـــةٍ

على الأسوارِ، وحُفِرَتْ حولَ الأسوارِ خنادقُ، وتواتَـرَتْ على البلدِ جيوشٌ جرارةٌ فلم يلبثِ البلدُ أنْ سلّم.)[1]

ثم تقدم الجيشُ الفرنجيُّ نحو أربونةَ معقلِ العـربِ الرئيسي في غالةَ.

وتواثَبَتْ أممُ الفرنجةِ، وانقضَّتْ على المسلمين مـن كلِ جهةٍ فقطَعَتْ عليهم طرقَ المواصلةِ مـع الأندلـسِ، فاضطر المسلمون أن يتصلوا بمراكِزِهِمُ الرئيسيةِ عـن طريق البحرِ.

فسارع الأميرُ عقبةُ بنُ الحجاجِ بإرسـالِ مـددٍ عـن طريق البحرِ يقودُهُ قائدٌ عربيٌّ يقالُ له: عمـر، أو عمـرو فنزل بجيشِهِ على شاطئِ غالةَ قريباً من أربونةَ ولـم يكـدِ الجيشُ العربيُّ يتمركزُ ويتخذُ مواقعَهُ حتى سـارع مارلـه

(١) فجر الأندلس.

للتصدي له ومنعِهِ من أداءِ مهمتِهِ، والتقى الجيشان على شاطئِ نهرِ البرِ على بضعةِ فراسخَ من أربونةَ.

وتذكرُ بعضُ المراجعِ: أن القائدَ العربي كان قد تحصَّنَ على ربوةٍ عاليةٍ واعتمد على كثرةِ جندِهِ ولم يتخذِ الحيطةَ، ففاجأه مارله على غرةٍ وأنزل به هزيمةً قبيحةً استُشهِدَ فيها عمرُ نفسُهُ، ولم ينجُ ممن معه إلاّ عددٌ قليلٌ استطاع بعضُهمُ الوصولَ إلى أربونةَ ودخولَها، وحاولَ الباقون الهربَ في المراكبِ فتعقبُهمُ الفرنجةُ في مراكبَ صغيرةٍ وأصابوا كثيرين منهم.) انتهى من كتاب فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس.

فشلُ مارله في الاستيلاءِ على أربونةَ

على الرغمِ مما حدث من سقوطِ ابنيونَ وتكالبِ الفرنجةِ على المسلمين من كلِ جهةٍ، وهزيمةِ جيشِ عمرَ، أو عمروٍ الذي جاء لنجدةِ أربونةَ، واستشهادِ قائدِهِ، بقيتْ أربونةُ صامدةً تتحدى الفرنجة، وما جمعوا لها من جيوشٍ جرارةٍ، وأسلحةٍ فتاكةٍ، ومراكبَ هدامةٍ، ثبتت في وجهِ الغزاةِ بثباتِ المدافعين عنها وصمودِهُم المشرفِ رغم الحصارِ المحكم والشديدِ الذي ضربه مَارله ليتمكنَ من إسقاطِها، لأن المسلمين استبسلوا في الدفاع عنها، وضربوا أروعَ الأمثلةِ في وجهِ المعتدين ومقاومتِهِم حتى أبعدوهم عنها، وهزموهم شرَّ هزيمةٍ.

لقد أمر مَارله قواتِهِ المسلحةَ بالتراجعِ عن أربونةَ حين يئس من دخولِها ولم ينلْ من طولِ حصارِها شيئاً،

ووجد نفسَهُ مضطراً إلى رفـــعِ الحصـــارِ والانســـحابِ بجيشِهِ والتقهقرِ إلى الشمالِ قبل أن يُقضى عليه.

يقولُ الدكتور مؤنس: (ويبدو أن أهلَ غالةَ الجنوبيةِ وقفوا منه موقفَ العدوِ ولم يعينوه على ما طلـــب مـــن إخراج المسلمين، مما يدلُنا على أنَّ ما تذكرُهُ الروايـــاتُ النصرانيةُ عن مساءاتهم في النواحي التي دخلوهـــا إنْ هي إلاّ مبالغاتُ قساوسةٍ، ومزاعمُ رهبـــانِ نصـــارى، فأراد مارله الانتقام من أهلِ غالة ليعزّيَ نفسَهُ عن فشـلِهِ أمام حصونِ أربونةَ، فعسَفَهمْ عســـفاً شـــديداً، وخـــرَّبَ حصونَ بيزييه وأجدةَ ونيحةٍ، وقد لقيَـــتْ هـــذه البلـــدةُ النصرانيةُ الأخيرةُ من الويلاتِ على يـــدِ مارلـــه شـــيئاً كثيراً، فهدّمَتْءِ أسوارُها، وأُطلِقَتْ فيها النيرانُ، وفعـــل مارله مثلَ ذلك بمجلونةَ وكـــانَتْ إذ ذاك مـــن المـــدنِ

الزاهرةِ في هذه الناحيةِ، وعاد إلى الشمالِ ومعه كثـــيرٌ من أسرى المسلمين، وعددٌ من كبارِ الغـــاليين، أخذهـــم معه كرهائنَ ليضمنَ بهم إرغامَ أهـــلِ نواحيـــهم علـــى التخلي عن عونِ العربِ، مما يدلُنا على أن أهلَ غالـــةَ الجنوبيةِ كانوا يفضلون المسلمين على الفرنجةِ، وذلـــك طبيعيٌّ لأن الفرنجةَ كانوا إذ ذاكَ أجلافاً قساةً بعيدين عن كلِ تمدنٍ، لا مقارنةَ بينهم وبين المسلمين أصـــــلاً فـــي مسائلِ الحكمِ والتنظيمِ.

ويؤيدُ المؤرخُ رينو ذلك بقولِهِ: (ومن المؤكَّـــدِ أن سلطانَ مارله كان مُبغَضاً إلى أهلِ غالةَ الجنوبيةِ، لأنـــهم كانوا يفخرون بأنهمُ احتفظوا بجزءٍ من النظمِ الرومانيـــةِ وحضارتِها، فكانوا ينظرون إلى أهلِ الشـــمالِ نظرتَـــهم إلى متبربرين لم تزايلْهم طوابعُ الجلافةِ الجرمانيةِ، ولـــم

يستطع رجال الدين على الخصوص أن يغفروا لمارله استبداده بممتلكات الكنائس، وكان العرب في تقدمهم قد استولوا على معظم الكنائس والأديرة، ووضعوا أيديهم على ممتلكات هذه المؤسسات، فلما أقبل مارله وأخرج العرب لم يعد إلى رجال الدين ممتلكاتهم، وإنما فرق الأراضي والمنازل على جنوده فأثار ذلك استنكار الأتقياء وظل معظم الأسقفيات والأديرة خرابا لقلة تعهدها بالعناية.

ويذكر التاريخ أن فيليكاريوس أسقف فيين الذي حاول بعد خروج العرب من المدينة أن يسترجع ممتلكات أسقفيته، فلما وجد أنها تفرقت في أيدي غير رجال الدين غادر بلده ومضى إلى دير القديس ماوريكيوس (سان مورتيز الآن)، ولم تصلح هذه

الأخطاءُ إلا خلالَ الأعوامِ التاليةِ شيئاً فشيئاً في حكم بيبين وشارلمان.)

انتهى من كتاب فجر الأندلس للدكتور مؤنس.

إنّ عبارةَ رينو تكشفُ لنا بوضوحٍ مسألتين هامتين، هما:

الأولى: كراهيةُ أهلِ غالةَ الجنوبيةِ للفرنجةِ، وتخليّهم عن نصرةِ مارله، وعدم استجابتِهِم له حين طلب منهم مساعدَتَهُ لإخراجِ المسلمين من أربونةَ، بل أظهروا له الكراهيةَ والبغضاءَ.

الثانيةُ: اعترافُ رينو وهو مؤرخٌ نصرانيٌّ برحمةِ المسلمين وعدالتِهِم واحترامِهِم للأديانِ وأصحابِها، والمحافظةِ على الأموالِ والأنفسِ والمعاملةِ الحسنةِ والإنسانيةِ للأسرى، وعدمِ الاعتداءِ على العُزّلِ والشيوخِ والنساءِ والأطفالِ، وقد تقدم معنا أن عقبةَ بنَ الحجاجِ

السلولي كان إذا أسر الأسيرَ لم يقتلْهُ حتـــى يدعــوَهُ إلــى الإسلامِ ويبينَ له فضائلَهُ، فكان نتيجةَ هذه المعاملةِ الحســنةِ أنْ أسلَمَ على يديه ألفا رجلٍ، الأمرُ الذي يلفتُ انتباهَنا إلــى أنه كان يؤثرُ الرفقَ حتى مع الأسرى الذين كان مصــيرَهم القتلُ في قواعدِ الحربِ في تلك الأيام...!!

يقولُ الدكتور مؤنس متسائلاً:

(فكيف بأهلِ المدنِ والأريافِ الذين يستسلمون ويؤدون الجزيةَ دون حربٍ...؟ وكيف ولدينا البرهانُ الساطعُ علــى حسنِ تصرفِ المسلمين مع أهلِ هذه النواحي من انضمامِهم إلى المسلمين ومؤازرتِهم إياهم على ملــكِ الفرنجــةِ وأودو وغيرِهما من طواغيتِ الجرمانِ...؟

وحتى كتاباتُ الرهبانِ ــ على تعصبِــها الشــديدِ ــ تفيضُ بالشكوى من مساءاتِ الفرنجةِ وملكِهم مارتل، وقــد كُتبتْ معظمُها بعد هذه الحوادثِ بســنواتٍ، أي فــي ظــلِ

امبراطوريةِ شارلمان، فلا بُدَّ أنَّ كتّابَها خفّفوا كثـــيراً مـــن مساءاتِ مارتل، وأما ما فيها من الأقـــوالِ عـــن أفـــاعيل المسلمين فمبالغاتٌ تقربُ من الأســـاطيرِ، ولا يســـتطيعُ التاريخُ المنصفُ أن يقبلَ إلا القليلَ منها.)[1]

وما كراهيةُ أهلِ غالةَ للفرنجـــةِ عامـــةً ولمـــارتل خاصةً، وهم نصارى مثلُهُ...!!

وما تعاطُفُهم مع المسلمين وحزنُهم على هزيمتِـــهم في معركةِ البلاطِ، واستعانتُهم بهم أحياناً...!!

وما تحالفُ الدوقِ ماورنت مع جندِ المسلمين كمـــا تقدم، إلا بسببِ ما لمسوه من معاملةٍ حســـنةٍ وإنســـانيةٍ، وحفاظٍ على العهودِ والمواثيقِ والصـــدقِ والإخـــلاصِ والوفاءِ، وتلك سمةُ المسلمين في كلِ زمانٍ ومكانٍ، مـــع

---

(1) فجر الأندلس.

صديقِهم وعدوهم، فــــي ســلمِهم وحربِــهِم، والــتراثُ الإسلاميُّ يفيضُ بالأمثلةِ الصادقةِ، والشواهدِ الحيةِ علــى التزامِ المسلمين وتمسُّكِهم بها والقرآنُ الكريــمُ، والســنةُ النبويةُ المطهرةُ أصدقُ شاهدٍ على ذلك، قال اللهُ تعــالى: (إلاّ الذين عاهدتم مِنَ المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتِموا إليهم عهدَهم إلى مدتِــــهم إنّ اللهَ يحبُ المتقين)[1](كيف يكونُ للمشركين عهدٌ عنــد اللهِ وعند رسولِهِ إلا الذين عاهدتم عند المسجدِ الحرامِ فمــــا استقاموا لكم فاستقيموا لهم إنّ اللهَ يحبُ المتقيــن)[2](وإنْ نكثوا أيمانَهم من بعدِ عهدِهِم وطعنوا في دينكم فقــــاتلوا أئمةَ الكفرِ إنهم لا أيمانَ لهم لعلهم ينتهون)[3]

---

(1) الآية /٤/ من سورة التوبة.

(2) الآية /٧/ من سورة التوبة.

(3) الآية /١٢/ من سورة التوبة.

والآياتُ الكريمةُ كثيرةٌ جداً في القرآنِ الكريم وهي بمجموعِها تأمرُ المسلمين بالتزامِها، وتعلقُ الوفاءَ بتقوى الله وطاعتِهِ، وتجعلُ هذا الوفاءَ عبادةً له، وهذه هي قاعدةُ الأخلاقِ في الإسلامِ.

الإسلامُ والمحافظةُ على العهودِ والمواثيق

لقد أمر الإسلامُ بالمحافظةِ على العهودِ والمواثيق، وحثَّ على التزامِها والتمسكِ بها، واعتبر نقضها نقضاً لعهدِ اللهِ، وخيانتَها خيانةً للهِ، وفي ذلك يقولُ اللهُ تعالى:

(ولقدِ كانوا عاهدوا اللهَ من قبلُ لا يولون الأدبارَ وكان عهدُ اللهِ مسؤولاً)[1] أي أنَّ اللهَ عز وجل سيسألُهم عنه ويحاسبُهم على نقضِه وخيانتِهِ حساباً عسيراً.

---

[1] الآية /١٥/ من سورة الأحزاب.

ذلك أن الله عز وجل يكـــره الخيانـــة والخـــائنين، ويحتقر الذين ينقضون عهودهم ومواثيقهم، ومن ثـــم لا يريد للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل الوصـــول إلى تحقيق غاية مهما تكن هذه الغاية، وإن كانت شريفة، وليس مسلما من يبرر الوسيلة بالغاية، فهذا مبدأ ممقـوت في نظر الإسلام ومرفوض جملة وتفصيلا. ذلـــك أن الله لا يحب الخائنين.

ولقد عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع يـــهود المدينة أول مقدمه إليها عهدا على المسالمة والموادعـــة والدفاع المشترك عن المدينة مع التسليم بـــأن الســـلطة العليا في المدينة هي سلطة رسول الله صلى الله عليـــه وسلم، والتعهد منهم بالدفاع المشترك معه ضد قريـــش، والكف عن مناصرة أي مهاجم للمدينة، أو عقد أي حلف

مع المشركين المحاربين دون إذنٍ من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

ولما كانَتْ غزوةُ الخندقِ، واجتَمَعَ الأحزابُ على المدينةِ، لم تشتركْ معهم بنو قريظةَ في حصارِ المدينةِ للعهدِ الذي كان بينهم وبين رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فذهب حُيَيٌّ بنُ أخطبَ إلى كعبِ بنِ أسدٍ زعيمِ بني قريظةَ يحثُّهُ على نقضِ العهدِ والتحالفِ مع الأحزابِ لحربِ المسلمين واستئصالِهِم، فرفض كعبُ بنُ أسدٍ هذا العرض في بادئ الأمرِ وقال لحُيَيّ بنِ أخطبَ: اذهبْ عني، فإنك رجلٌ مشؤومٌ تدعوني إلى خلافِ محمدٍ وأنا قد عاقدتُهُ وعاهدتُهُ ولم أرَ منه إلا وفاءً وصدقاً، فلستُ بناقضٍ ما بيني وبينَهُ، فلم يزل به يعدُهُ ويمنّيه حتى استجاب له واتفق معه على نقضِ عهدِهِ مع

رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، (كمثلِ الشيطانِ إذ قــال للإنسانِ اكفُرْ فلما كفر قال إني بريءٌ منك إني أخـــافُ اللهَ ربَّ العالمين. فكان عاقبتَهما أنهما في النارِ خـــالدَين فيها وذلك جزاءُ الظالمين)[1] صدق الله العظيم.

وعقد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عـــهداً مـــع مشركي قريشٍ وهو ما يُسمّى (بصلحِ الحديبيــــة) عقــد معهم ذلك الصلحَ وهم على شركِهِم بشروطٍ لم يســـترحْ إليها المسلمون إذ بَدَتْ لهم في الظاهِرِ ظالمةً ومجحفـــةً في حقِهم ولكنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم تمسَّـــكَ بذلك العهدِ والتزمَ به، وقال لعمرَ حين راجعه فيه: (أنـــا عبدُ اللهِ ورسولُهُ، ولن أخالفَ أمرَهُ، ولن يضيعَني)[2]

---

[1] الآيتان /١٦-١٧/ من سورة الحشر.

[2] سيرة ابن هشام.

فكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في جميعِ ذلك ملتزماً بعهدِه وأمانتِهِ، متمسكاً بوعدِه وميثاقِهِ، وكان القدوةَ الصالحةَ، والأسوةَ الحسنةَ لمن كان يرجو الله واليومَ الآخرَ وذكرَ الله كثيراً، بل كان أستاذَ البشريةِ كلِها في الصدقِ والوفاءِ والالتزامِ بالعهدِ والميثاقِ، والتحلي بالآدابِ العامةِ ومكارمِ الأخلاقِ، ولقد أمَرَهُ الله عز وجل بنقضِ العهدِ إذا توقَّعَ من عدوِه خيانةً، أو إخلالاً ببندٍ من بنودِ المعاهدةِ، أو خُروجاً عن الاتفاقيةِ، كما فعلَتْ بنو قريظةَ، وكما فعلَتْ قريشٌ حين خالفَتْ بنودَ المعاهدةِ وأمَدَّتْ بني بكرٍ بالرجالِ والسلاح في قتالِهِم قبيلةَ خزاعةَ، وكانت بنو بكرٍ قد دخلت يومَ صلحِ الحديبيةِ في حلفِ قريشٍ، ودخلَتْ خزاعةُ في حلفِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم الذي اعتبر عَمَلَ قريشٍ

نقضا لمعاهدة صلح الحديبية، فعبأ جيشه وزحف به إلى مكة ففتحها.

ولعل هذا معنى قوله تبارك وتعالى: (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين)[1] صدق الله العظيم.

يقول أحد الباحثين الإسلاميين: (إن الإسلام يعاهد ليصون عهده، فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية، ولم يخن ولم يغدر، ولم يغش ولم يخدع، وصارح الآخرين بأنه نفض يده من عهدهم، فليس بينه وبينهم أمان.

وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والإستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة.

---

(١) الآية /٥٨/ من سورة الأنفال.

إنه لا يبيتُ الآخرين بالهجومِ الغادرِ الفاجرِ وهم آمنون مطمئنون إلى عهودٍ ومواثيقَ لم تُنقَضْ ولم تُنْبَذْ، ولا يروّعُ الذين لم يأخذوا حِذرَهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبِهم.

إنَّ الإسلامَ يريدُ للبشريةِ أن ترتفعَ، ويريدُ للبشريةِ أن تعفَّ، فلا يبيحُ الغدرَ في سبيلِ الغَلَبِ، وهو يكافحُ لأسمى الغاياتِ وأشرفِ المقاصدِ، ولا يسمحُ للغايةِ الشريفةِ أن تستخدمَ الوسيلةَ الخسيسةَ.

مقارنةٌ بين عفوِ الإسلامِ وغدرِ غيرِه

اشتعل مرجلُ الحقدِ الصليبي منذ موقعةِ اليرموكِ الظافرةِ التي أعقبها انطلاقُ الإسلامِ لتحريرِ المستعمراتِ الإمبراطوريةِ الرومانية في الشامِ ومصرَ وشَمالِ إفريقيةَ وجزرِ البحرِ الأبيضِ، ثم بناءُ القاعدةِ الإسلاميةِ الوطيدةِ في الأندلسِ في النهايةِ.

إن الحروبَ الصليبيةَ المعروفةَ بهذا الإسمِ في التاريخِ، لم تكنْ هي وحدها التي شنتها الكنيسةُ على الإسلامِ، لقد كانت هذه الحروبُ مبكرةً قبل هذا الموعدِ بكثيرٍ، لقد بدأَتْ في الحقيقةِ منذ ذلك التاريخِ البعيدِ، منذ أنْ أنهَى الرومانُ عدواتَهم مع الفرسِ، وأخذ النصارى يعينون الفرسَ ضدَّ الإسلامِ في جنوبِ الجزيرةِ، ثم بعد ذلك في مؤتةَ، ثم فيما تلا موقعةَ اليرموكِ الظافرةَ.

ثم تجلَّتْ ضراوتها ووحشيتُها في الأندلسِ عندما زَحَفَتِ الصليبيةُ على القاعدةِ الإسلاميةِ في أوربا، وارتكبَتْ من الوحشيةِ في تعذيبِ ملايينِ المسلمين وقتلهم هناك مالم يعرفِ التاريخُ له نظيراً من قبلُ.

وكذلك تجلَّتْ في الحروبِ الصليبيةِ في الشرقِ بمثلِ هذه البشاعةِ التي لا تتحرجُ ولا تتذمَّمُ، ولا تراعي في المسلمين إلاًّ ولا ذمةً.

ومما جاء في كتابِ (حضارة الإسلام) لجوستاف لوبون ـــ وهو فرنسيٌّ مسيحيٌّ.

(كان أولَ ما بدأ به ريكاردوس الإنجليزيُّ أنه قتل أمامَ معسكرِ المسلمين ثلاثةَ آلافِ أسيرٍ سلموا أنفسَهم إليه، بعد أن قطع على نفسِهِ العهدَ بحقنِ دمائِهِم، ثم أطلقَ لنفسِهِ العنانَ باقترافِ القتلِ والسلبِ، مما أثار

صلاحَ الدينِ الأيوبيَّ النبيلَ، الذي رحِمَ نصارى القدسِ، فلم يمسَّهم بأذى. والذي أمدَّ فيليب وقلبَ الأسدِ بالمرطباتِ والأدوية، والأزوادِ أثناءَ مرضِهما.

كذلك كتب مسيحيٌّ آخرُ (اسمُهُ بورجا) يقولُ:

(ابتدأ الصليبيون سيرَهم على بيتِ المقدس بأسوأ طالعٍ، فكان فريقٌ من الحجاجِ يسفكون الدماءَ في القصورِ التي استولَوا عليها، وقد أسرفوا في القسوةِ فكانوا يبقرون البطونَ ويبحثون عنِ الدنانيرِ في الأمعاءِ.

أمّا صلاحُ الدين فلما استَردَّ بيتَ المقدسِ بذل الأمانَ للصليبيين، ووفى لهم بجميعِ عهودِهِم، وجاد المسلمون على أعدائِهِم ووطؤوهم مهادَ رأفتِهِم، حتى إنَّ الملكَ العادلَ، شقيقَ السلطانِ أطلق ألف رقيقٍ من الأسرى، ومَنَّ على جميعِ الأرمنِ، وأذِنَ للبطريركِ

بحملِ الصليبِ، وزينة الكنيسةِ، وأبيحَ للأميراتِ والملكـةِ بزيارةِ أزواجِهِنَّ)[1]

أما موقف الإسلامِ من الأسرى فلقـد كـان علـى جانبٍ عظيمٍ من الإنسانيةِ والرحمةِ وعلى غايةٍ كبـيرةٍ من الرقةِ البالغةِ، والشفقةِ الزائدةِ، والمعاملـةِ الطيبـةِ، وكفى على ذلك دليلاً قولُ النبي صلى الله عليـه وسـلم للمسلمين يومَ بدرٍ: (استوصوا بالأُسارى خيراً).

وقال أبو عزيزٍ أخو مصعبِ بنِ عميرٍ رضـي الله عنه، وكان أبو عزيزٍ ضمنَ أسرى بدرٍ: (كنتُ في رهطٍ من الأنصارِ حين أقبلوا بي من بدرٍ، فكانوا إذا قدّمـوا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبزِ وأكلوا التمرَ ـ وقـد كان الخبزُ أحبَّ وأشهى إلى القومِ من التمرِ لكثرتِهِ وقلـةِ

---

(1) الشريعةُ الإسلامية والقانون الدولي العام للأستاذ علي علي منصور.

الخبزِ ــ لوصيةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إياهم بنـــا، ما تقعُ في يدِ رجلٍ منهم كسرةُ خبزٍ إلا نفحني بها... قـــال: فأستحيي فأردُّها على أحدِهِم، فيردُّها علي ما يمسُّها).

وكان العباسُ عمُّ النبي صلى الله عليـــه وســـلم بيـــن الأسرى، فسهر النبيُّ صلى الله عليه وسلم تلك الليلةَ، ولـــم يغمضْ له فيها جفنٌ، فقال له بعض أصحابِهِ: ما يسهرُكَ يـــا نبيَّ اللهِ...؟

فقال: أنينُ العباسِ.

فقام أحدُ المسلمين فأرخى من وثاقِهِ.

فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: مالي لا أســـمعُ أنينَ العباسِ...؟

فقال الرجلُ: إني أرخيتُ من وثاقِهِ شيئاً.

فقال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم: فافعل ذلـــك بالأسارى كلِهِم.

هذا موقفُ الإسلامِ مــن الأســرى، وهــذه معاملتُــهُ لهم...!! أدبٌ عظيمٌ، وخُلُقٌ كريمٌ، يغمرُ به الأعداءَ، ورحمةٌ واسعةٌ تشملُ الجميعَ، فهل يوجَدُ في دنيا النـــاسِ، معاملــةٌ حسنةٌ وإنسانيةٌ كما في ظـــلِ الإســـلامِ، وأخـــلاقِ أبنائـــهِ، وممارساتِهم...!!

وهل يوجَدُ في القوانيـــنِ الوضعيـــةِ، والأنظمــةِ العالميةِ، والأعرافِ الدوليةِ نظامٌ كنظـــامِ الإســـلامِ...!! ورحمةٌ واسعةٌ، ومعاملةٌ إنسانيةٌ، وتطبيقاتٌ عمليةٌ كمـــا في نظامِ الإسلامِ...!!وكفى على ذلك دليلاً قـــولُ الحـــق تبارك وتعالى:(ياأيها النبيُّ قلْ لمن فـــــي أيديكـــم مـــن الأسرى إنْ يعلمِ اللهُ في قلوبِكم خيراً يؤتِكم خـــيراً ممـــا أُخِذَ منكم ويغفرْ لكم واللهُ غفورٌ رحيـــمٌ)[1] صـــدق الله العظيم.

---

[1] الآية /٧٠/ من سورة الأنفال.

فهل يصدِقُ عاقلٌ ومنصفٌ أن قوماً يحفظون كــلامَ اللهِ تعالى ويفهمونه، وهم على مافيه من الدينِ والـــورعِ والتزامِ أمرِ اللهِ واجتنابِ نهيهِ، واتباعِـــهِم لســنةِ نبيـــهِ، وتمسُّكِهِم بآدابِ دينِهِم، وأخلاقِهِمُ الإســـلامية أن تظـــهرَ على أيديهِم ما يُنسبَ إليهم من ظلمٍ وبطــــشٍ وعــدوانٍ وفسادٍ، ونهبٍ وإحراقٍ للكنـــائسِ والأديــرةِ، وتخريـــبٍ للمؤسساتِ الدينيةِ وغيرِها...!! سبحانك اللهم هذا بــهتانٌ عظيمٌ...!!

خاتمة

في التعريفِ بمونوسةَ

علمنا فيما تقدَّمَ أنَّ مونوسةَ كان بربرياً، وأنه أشعل نارَ الثورةِ على العربِ في فترةِ إمارةِ عبـــدِ الرحمـــنِ الغافقي.

لقد كان مونوسةُ هذا من أكبرِ قوادِ المسلمين، حتى لقد قيل: إنه كان من رؤساءِ الجندِ في جيشِ طارقِ بـــنِ زيادٍ، فلما تمَّ لطارقٍ فتحُ الأندلس عينَـــهُ حاكمـــاً علـــى أشتريس وما يتبعُها من نواحي جلّيقيّة.

(ويستوقفُ نظَرنا أن المراجعَ النصرانيةَ الإســبانيةَ تذهبُ إلى أن مونوسةَ تعلق بابنةِ بلاي[1] وتزوجها، كما

---

[1] وسوف يأتي الحديث عنه في معركة الزلاقة ضمن هذه المجموعة.

أحبَّ ابنةَ أودو وتزوجها، كأنه كـــان ذا ولـــعٍ خـــاصٍ بالوقوعِ في هوى بناتِ الأشرافِ والزواجِ منهنَّ...)[١]

ولعلّ السرَّ في علاقةِ مونوسةَ والدوقُ أودو هـــي علاقةُ المصاهرةِ، فلمّا استفحل أمرُ بلاي وأخذ يتوسَّـــعُ في البلادِ حتى وقَعَتْ بينه وبيـــن مونوســـةَ مناوشـــاتٌ انتصر فيها مونوسةُ الذي ظلّ يحاربُهُ ويطـــاردُهُ حتـــى ألجأَهُ إلى التحصنِ بالصخرةِ، ولولا الفتنةُ البربريةُ التـــي وقعت بين العربِ والبربرِ، والتي قادها مونوسةُ ولـــولا تَصَدّي عبدِ الرحمنِ الغافقي لـــهذه الثـــورةِ ومواصلـــةُ الحربِ ضدَّ مونوسةَ التي أَدَّتْ إلى مقتلِهِ على يـــدِ ابـــنِ زيان سنة ثلاثَ عشرة ومائةٍ لقضى مونوسةُ على بلاي، وأراح المسلمين من شرِهِ، ومـــن الويـــلاتِ والحـــروبِ

---

[١] فجر الأندلس.

الكثيرةِ التي أصابتِ المسلمين، وأدَّتْ إلى مشاكلَ كثــيرةٍ ومتواصلةٍ، كان بلاي الملعونُ هو السببَ في ذلك كلِهِ.

ومن يدري...؟ لو لم يكنِ بلاي هو الــــذي جمـــعَ الفرنجةَ على حربِ المسلمين ومن ثَــمَّ إخراجُــهم مـــن الأندلسِ، لنهض غيرُهُ لهذا الأمرِ، وقام بنفسِ الدورِ الذي قام به بلاي...!! ولكن ليقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً.

فالمسلمون معرضون دائماً للابتــــلاءِ والامتحــــانِ، وأنواعِ الفتنِ والشدائدِ، ولقد مَضَتْ سنةُ اللهِ فيـــهم بعـــد وفاةِ نبيِّهم إلى يومنا هذا وحتى يرثَ اللهُ الأرضَ ومَـــنْ عليها، فقد تكالَبَتْ عليهم قوى الشـــرِ والبغـــي والفســـادِ والطغيانِ من مغولٍ وتتارٍ، وصليبييـــن ويـــهودٍ غـــزوا بلادَهم، وأحرقوا لهمُ المنازلَ، وهدموا المساجدَ، وقتلـــوا الشيوخَ والنساءَ والصبيانَ بلا رحمةٍ، وبقـــروا بطـــونَ

الحواملِ، وافتضوا الفتياتِ، واعتدَوا على الأعـــراضِ، وانتهكوا الحرماتِ، وعاثوا في الأرضِ الفسادَ، ومضَـوا يهلكون الحرثَ والنسلَ وإلى يومِنا هذا على يدِ الغـــزاةِ الصهاينةِ في فلسطينَ العربيةِ المسلمةِ.

وصدق اللهُ العظيم إذ يقولُ فـــي كتابِـهِ العزيـز: (أَحَسِبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتَنـون. ولقد فتنّا الذين مِنْ قبلِهِم فلَيعلَمَـــنَّ اللهُ الذيـن صدقـوا ولَيعلَمَنَّ الكاذبين)[1] صدق الله العظيم.

تمتِ الرسالةُ والحمد لله رب العالمين

وإلى اللقاء مع معركةٍ إسلاميةٍ خالدةٍ أخرى

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(1) الآيتان /٢-٣/ من سورة العنكبوت.

الفهرس

مَعارك عَربيّة خَالدة

١٤

معركةُ وادي الحجارة

إعـــداد

عبدالقادرالشيخ ابراهيم

دارالقلم العربي



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1421 هـ - 2001 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

ص.ب :78 هاتف : 2213129 فاكس : 2212361 21 963+

البريد الالكتروني : E-mail : qalam_arabi@naseej.com



معركةُ وادي الحجارة

تمهيد :

انتَهتْ معاركُ فتحِ الأندلسِ بانتصاراتٍ ساحقةٍ للمسلمين فَتحَتْ أمامَهم الآمالَ للتوسُّعِ في أوربا كلّها، وجعلَتْ أحلامُهمْ تتطّلعُ إلى فتحٍ يجعلُ الشرقَ والغربَ مسلماً ترفرفُ فوقَ ربوعِهِ رايةُ الإسلامِ، وتصدحُ في أرجائِهِ كلمةُ التوحيدِ، وتختفي منه مظاهرُ عبادةِ غيرِ اللهِ تعالى، ويبقى الدينُ كلُّهُ للهِ. وقد ساعد المسلمين في سرعةِ انتصاراتِهِم، وكثرةِ فتوحاتِهِم،تعاليمُ الإسلامِ القائمةُ على التسامحِ والإنسانيةِ والرحمةِ والعدالةِ، وهي أمورٌ لم تكنْ مألوفةً عند غيرِهم من الأممِ والشعوبِ الأخرى. ولقد أظهر

المسلمون هذه التعاليمَ السامية في كلِ بلدٍ دخلوه، الأمرُ الذي جعل الشعوبَ المظلومةَ تشعرُ بها، وتلمسُ من المسلمين المعاملةَ الحسنةَ، فاندفعوا إليهم يستقبلونهم مرحبين، لذلك كان يتقررُ مصيرُ معاركِ المسلمين ربما في معركةٍ واحدةٍ، وتُحسَمُ لصالحِهم حسماً مذهلاً ومدهشاً أذهلَ العربَ المسلمين أنفَسهم وأدهَشَهم. لقد فتح المسلمون الأندلسَ، وأقاموا فيها حضارةً من أروعِ وأعظمِ ماعَرفَت الدنيا من حضاراتٍ نَهلَ منها الغربُ، ولايزالُ ينهلُ، فحقَّقَ الشكلَ ونسيَ المضمونَ. ولاتزالُ حضارةُ المسلمين قائمةً إلى يومنا هذا تَشهدُ بعظمةِ الإسلامِ، وعبقريةِ أبنائهِ في مجالِ الفنِ والبناءِ والزخرفةِ،وغيرِها من صروحِ الحضارةِ والمدنيةِ، وآثارِ العربِ المسلمين التي لاتزالُ شامخةً تشهدُ بقوتِهم وعظمتِهم مع تعاقبِ القرونِ والأجيالِ، من هذه الآثارِ، مدينةُ قرطبة، ومسجدُها العظيمُ، ومدينةُ الزهراءِ، ومدينةُ الزاهرةِ، وغيرُها.

وصفُ قرطبة

مدينةُ قرطبةَ أعظمُ مدنِ الأندلسِ وأجملُها موقعاً، وأغناها ثروةً، وأكثرُها فضلاً، وأحسنُها مناخاً، لاتصال الحضارةِ العظيمةِ، والدولةِ المتوارثة. قال عنها بعضُهم : أما قرطبةُ فهي قاعدةُ الأندلسِ، وقطبُها، وقطرُها الأعظمُ، وأمُّ مدائنِها ومساكنِها، ومستقَرُ الخلفاءِ، ودارُ المملكةِ في النصرانيةِ والإسلامِ ومدينةُ العلمِ، ومقرُّ السنةِ والجماعةِ، وهي مدينةٌ عظيمةٌ أزليةٌ، طيبةُ الماءِ والهواءِ، أحدقَتْ بها البساتينُ، وأشجارُ الزيتونِ، والقرى، والحصونُ والمياهُ. والعيونُ من كلِ جانبٍ. ونهرُها أعظمُ أنهارِ الأندلسِ، وبها القنطرةُ التي هي إحدى غرائبِ الأرضِ في الصنعةِ والإحكامِ، والجامعُ الذي ليس في بلادِ الأندلسِ والإسلام أكبرُ منه.[1] وقال الحجاريُّ:كانت قرطبةُ في الدولةِ المروانية قبةَ الإسلامِ، ومجتمعَ علماءِ الأنامِ، بها استقرَّ سريرُ الخلافةِ المروانيةِ، وفيها

---

[1] نفخ الطيب.

تمخَّضَت خلاصةُ القبائلِ المعديَّةِ واليمانيةِ، وإليها كانتِ الرحلةُ في روايةِ الشعرِ والشعراءِ، إذ كانت مركزَ الكرماءِ، ومعدنَ العلماءِ، ولم تزلْ تُمَلأُ الصدورُ منها والحقائبُ، ويباري فيها أصحابُ الكتبِ أصحابَ الكتائبِ، ولم تبرحْ ساحاتُها مَجَرَّ عوالٍ، ومجرى سوابقَ، ومحطَّ معالٍ، وحمى حقائق، وهي من بلادِ الأندلسِ بمنـــزلةِ الرأسِ من الجسدِ، والزَّورِ[1] من الأسدِ، ولها الداخلُ الفسيحُ، والخارجُ الذي يُمَتِّعُ البصرُ بامتدادِهِ فلا يزالُ مستريحاً وهو من تردُّدِ النظرِ طليحٌ[2]. وذُكِرَ في نفحِ الطيبِ أنَّ السلطانَ أبا يعقوبَ بنَ عبدِ المؤمنِ قال لمحمدِ بنِ عبدِ الملكِ بنِ سعيدٍ: ما عندك في قرطبةَ ...؟ فقال: ماكان لي أن أتكلمَ حتى أسمعَ مذهبَ أميرِ المؤمنين فيها. فقال السلطانُ: إنَّ ملوكَ بني أميةَ حين اتخذوها حاضرةَ مُلْكهم لعلى بصيرةٍ، فالديارُ الكثيرةُ المنفسحةُ، والشوارعُ المتَّسعةُ، والمباني الضخمَةُ، والنهرُ الجاري، والهواءُ

---

[1] زأرة الأسد: أجمتُهُ، واصل الزور : الصدر.

[2] الطليح: الضعيف المهزول.

المعتدلُ، والخارجُ النضرُ، والحرث العظيمُ، والشعراءُ الكافيةُ، والتوسُّطُ بين شرقِ الأندلسِ وغربِها.فقال محمدُ بنُ عبدِ الملكِ: ما أبقى لي أميرُ المؤمنين ما أقولُ.[٤] وما أجملَ قولَ بعضِهم فيها:

دعْ عنكَ حضرةَ بغدادٍ وبهجتَها ولا تعظّمْ بلادَ الفرسِ والصـــينِ
فما على الأرضِ قطرٌ مثلُ قرطبةٍ وما مشى فوقَها مثلُ ابنِ حَمْدينَ

ومن آثارِ المسلمين في البناءِ بالأندلسِ، قصرُ قرطبةَ وهو يُنَسبُ إلى أبي يحيى بن أبي يعقوبَ بنِ عبدِ المؤمنِ، وهو قصرٌ رائعٌ منيفٌ، مُشادٌ على متنِ النهرِ، تحملُه أقواسٌ ضخمة، مطلٌ على قرطبةَ من كلِ جهةٍ، وقد قيل لصاحبِه أبي يحيى: كيف تأنّفتَ في بنيانِ هذ ا القصرِ مع انحرافكَ عن أهلِ قرطبةَ...؟ فقال: علمتُ أنهم لا يذكرون والياً بعد عزلِه، ولاله عندهم قدْرٌ، لما بقيَ في رؤوسِهم من الخلافةِ المروانيةِ،

---

(٤) نفخ الطيب.

فأحببتُ أن يبقى لي في بلادِهم أثرٌ أُذكَرُ به على رغمِهم.
ولقد قال عنه أحدُ الشعراءِ هذه الأبياتَ:

ألا حَبَّذا القصرُ الذي ارتَفَعتْ بـــه ... على الماءِ من تحتِ الحجارةِ أقــواسُ
هو المصنَعُ الأعلى الذي أنفَ الثرى ... ورفْـــعَةُ عنْ لثمـــه المجدُ والــباسُ
فأرْكِبَ متنَ النهرِ عـــزاً ورفعـــةً ... وفي موضعِ الأقدامِ لا يوجد الــراسُ
فلا زال معمـــورَ الجنـــابِ وبابـــُهُ ... يغصُّ وحَلّتْ أفْقَهُ الدهـــرَ أعـــراسُ

ومنها القصرُ المُسمّى بالدمشقِ، وهو قصرٌ عظيمٌ شَيَّدَهُ ملوكُ بني أميةَ على أعمدةٍ فخمةٍ عاليةٍ مصفّحةٍ بالذهبِ والجواهرِ والفُسَيفساءِ وغيرِها من أنواعِ الزينةِ والترفِ، وأنفق عليه من الزخرفةِ بلا عددٍ، وجُريَ في إتقانه إلى غيرِ أمدٍ، حتى أُبدِعَ بناؤهُ، ونُمّقَتْ ساحاتُهُ وفناؤُهُ، واتَخذه الملوكُ والأمراءُ ميدانَ مراحِهم، وموضعَ أفراحِهِم، وحكوا به قصرَهم بالمشرقِ، وجعلوه يغدو كالكوكبِ المشرقِ، وفيه قال بعضُهم :

كلُّ قصرٍ بعد الدمشـــقِ يُــذَمّ فيه طاب الجنى ولذّ المشمُّ
مــــنظرٌ رائــقٌ،ومــاءٌ غــيرٌ وثرىً عاطرٌ، وقصرٌ أشمُّ
بِتُّ فيه والليل والفجرُ عنــدي عنبرٌ أشهبٌ، ومسكٌ أحمُّ

ومـــن القصورِ الفخمةِ والمشهورةِ، والبساتينِ الكثيرةِ النضيرةِ: الكاملُ، والمجددُ، والزاهرُ، والروضةُ، وقصرُ الحائرِ، والمعشـــوقُ، والرشـــيقُ، والمباركُ، وقصرُ السرورِ، والتاجُ، والبديعُ، وكلُّها آثارٌ عجيبةٌ، ورياضٌ أنيقةٌ، تملأُ القلبَ بهجةً وسروراً، والعينَ فرحاً وحبوراً، أُجرِيَتْ إليها المياهُ العذبةُ من جـــبالِ قرطبةَ على المسافاتِ البعيدةِ، ووصلَت المياهُ إلى كلِ ســـاحةٍ مـــن ساحاتِ القصورِ، وكلِ ناحيةٍ من نواحيها في قـــنواتٍ مـــن الرصـــاصِ تنسابُ منها إلى البحيرات الهائلةِ، والبركِ البديعةِ، والأحواضِ الغريبةِ، المنقوشةِ بالرخامِ الرومي الرائعِ العجيبِ.

وصفُ قصرِ الرُّصافة

ومنها : قصرُ الرُّصافة، وهو قصرٌ عظيمٌ ابتناه عبدُ الرحمنِ الداخل في أولِ أيامِهِ وأسماه مُنيةَ الرُّصافةِ، وقد شادَهُ إلى الشمالِ الغربي من قرطبةَ، استقدم لبنائِهِ خيرةَ المهندسين والبنائين من مختلفِ البلدانِ، وجلب له المرمرَ من أطرافِ الأرضِ، وزيَّنَهُ بالذهبِ والفضةِ والجوهرِ، وحَرَّقَ فيه من البَخورِ والطيبِ ماكان ينتشرُ عَرفُهُ إلى أماكنَ بعيدةٍ، ورتَّبَ له العمالَ والخدمَ للقيامِ بتنظيفِهِ، والإشرافِ على حدائِقه، وبذل لهمُ المالَ والعطايا، حتى أضحى قصراً جميلاً رائعاً لم يعرفِ الناسُ مثَلهُ ضخامةً وفخامةً، وجلالاً وجمالاً وزخرفةً، فجعل الناسُ يعلقون على ذلك القصرِ قائلين : إنما بناه لنــــزهةٍ، فلما بلغه ذلك أقسَمَ ألا يجوزَ عليه إلا لجهادٍ في سبيلِ الله، أو لقضاءِ مصلحةٍ عامةٍ. وأسماه بالرصافةِ على

اسمِ رصافةِ جدهِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ الذي ابتناه بأرضِ الشامِ بقربِ الرقةِ. ولجمالِ ذلك القصرِ وجلالِهِ، وعظمتهِ وبهائه انطلق الشعراءُ والأدباءُ يتسابقون بوصفهِ، ويتناغون بذكرهِ فأتوا على ذلك بكلِ بديعٍ، وجمعوا لَه من كلِ فنٍ رفيعٍ، وصاغوا أجملَ الوصفِ، وأروعَ الشعرِ مازال باقياً وخالداً إلى اليومِ. قال في نفحِ الطيبِ: وقال ابنُ سعيدٍ: وأخبرني والدي قال : أخبرني الوشّاحُ المبرّز المحسنُ أبو الحسنِ المريني قال : بينما أنا أشربُ مع ندماني بإزاء الرُّصافةِ، إذا بإنسانٍ رثٍّ الهيئةِ، مجلوّ الطلعةِ، قد جاء فجلس معنا، فقلنا له: ما هذا الإقدامُ على الجلوسِ معنا دون سابقِ معرفةٍ...؟ فقال: لاتعجلوا عليَّ، ثم فكّرَ قليلاً ورفع رأسَهُ فأنشَدَنا :

اسقينها إزاء قصرِ الرصــــافةْ　　واعتبرْ في مآلِ أمرِ الخـــلافةْ

وانظر الأفقَ كيف بُدّلَ أرضاً　　كي يطيلَ اللبيبُ فيه اعترافَهْ

ويرى أنَّ كـــلَّ مـــا هو فيه　　من نعيم وعـــزٍ أمرُ ســـخافَةْ

كلُّ شيءٍ رأيتُه غـــيرِ شـــيءٍ　　ماخلا لذةَ الهوى و الســـلامة

قال المر يني : فقبلتُ رأسَهُ وقلتُ له : باللهِ مَنْ تكونُ ...؟ فقال : قاسمٌ بنُ عَبوّدٍ الريا حي الذي يزعمُ الناسُ أنه موسوسٌ أحمقُ، قال: فقلتُ له ما هذا شعرُ أحمقَ، وإنَّ العقلاءَ لتعجزُ عنه، فباللهِ إلاّ ما تممت مسرّتَنا بمؤانستكَ ومنادمتكَ، ومناشدةِ طُرفِ أشعارِكَ، فنادِمْ وأنشِدْ، ومازلنا معه في طيبةِ عيشٍ إلى أن ودّعناه وهو يتلاطمُ مع الحيطانِ سكراً، وهو يقولُ: اللهم غفراً.[1] وقال آخرُ في وصفِ بستانِ القصرِ وأشجارِهِ الجميلةِ المتكاثفةِ:

---

(١) نفح الطيب.

سَطْرٌ من اللوزِ في البستانِ قابلني   ما زاد شيءٌ على شيءٍ ولاَنقَصا
كأنما كــلُّ غصــنٍ كمُّ جاريةٍ   إذا النسيمُ ثنى أعطافَهُ رَقصــا

مسجدُ قرطبةَ

قال بعضُ المؤرخين: وأما مسجدُ قرطبةَ فشهرتُهُ تغني عن كثرةِ الكلامِ فيه، ولكن نذكرُ من أوصافِهِ، وننشرُ من أحوالِهِ ما لابد منه، فنقولُ: ليس في بلادِ الإسلامِ أعظمُ منه، ولاأعجبُ بناءً، وأتقنُ صنعةً، وكلما اجتمعَتْ منه أربعُ سواري كان رأسها واحداً. وكان الذي ابتدأ بنيانَ هذا المسجدِ العظيمِ عبدُ الرحمن بنُ معاويةَ المعروفُ بالداخلِ، ولم يكتملْ بناؤهُ في حياتِهِ، فأكمَلهُ ابنهُ هشامٌ، ثم توالى الخلفاءُ على الزيادةِ فيه، حتى صار آيةً في الجمالِ، ومضربَ المثلِ في الروعةِ والبهاءِ والزخرفةِ فكان عبدُ الرحمنِ الداخلُ لـــمّا

استقرَّ أمرُه، وعظُمَ سلطانُهُ، وتمهَّدَ ملكُهُ شرع في تعظيمِ قرطبةَ، فجدَّدَ مفاتيَها، وشيَّدَ مبانيها، وحَصَّنها بالسورِ، وابتنى قصرَ الإمارةِ، والمسجدَ الجامعَ، ووسَّعَ فِناءَه، وأنفق عليه ثمانين ألفَ دينارٍ، وكان موضعَهُ كنيسة فاشتراه بمائةِ ألفِ دينارٍ. وفي ذلك يقولُ دحيةُ بنُ محمدٍ البلوي:

وأنفقَ في دينِ الإلهِ ووجهِهِ ... ثمانين ألفاً من لُجَينٍ وعَسْجَدِ
توزَّعها في مسجدٍ أسُّه التقى ... ومنهجُه دينُ النبي محمدِ
ترى الذهبَ الناريَّ فوق سموكهِ ... يلوحُ كبرقِ العارضِ المتوقدِ[1]

وفي زمنِ المنصورِ بنِ أبي عامرٍ نزل قرطبةَ أمراءُ العربِ فكثروا فيها، فضاق عنهمُ المسجدُ حتى كاد لا يسعهم، فكانوا ينالون في الوصولِ إلى داخلِه مشقةً جسيمةً لتلاصقِ سقائفِه، وقصرِ أبوابِها، وتطامنِ سقفِها لذلك عزم المنصورُ على العملِ لتوسعةِ المسجدِ، فاستدعى أصحابَ

---

[1] العارض: السحاب الذي يعرض في الأفق.

الدورِ المجاورةِ له وكانوا نصارى، فكان يأذنُ لهم بالدخولِ عليه واحداً بعد الآخرِ، فيقولُ له: ياهذا، إنَّ هذه الدارَ التي لك أريدُ أن أبتاعها منكَ لجماعةِ المسلمين من مالِهم وفيئِهم لأزيدَها في جامعِهم وموضعِ صلاتِهم، فارفعِ الثمنَ واطلبْ ما شئت، فكان الرجلُ إذا طلبَ أقصى الثمنِ وأغلاه أمَرَ أن يضاعَفَ له الثمنُ، وأن تُشترى له دارٌ بعد ذلك عوضاً عن دارِهِ، حتى لقد روي أنه أنفق في ذلك مائةَ ألفٍ وواحداً وستين ألفَ دينارٍ ونيّفاً. وذكر في نفحِ الطيبِ في وصفِ جامعِ قرطبةَ نقلاً عن كتابِ (مجموعِ المفترقِ) فقال: وكان سقفُ البلاطِ من المسجدِ الجامعِ من القبلةِ إلى الجوفِ قبل الزيادةِ مائتين وخمسةً وعشرين ذراعاً، والعرضُ من الشرقِ إلى الغربِ قبل الزيادةِ مائةَ ذراعٍ وخمسةَ أذرعٍ، ثم زاد الحكمُ في طولِهِ مائةَ ذراعٍ وخمسةَ أذرعٍ، فكمُلَ الطولِ ثلاثمائةِ ذراعٍ وثلاثين ذراعاً. وزاد محمدُ بنُ أبي عامرٍ بأمرِ

هشامٍ بنِ الحكمِ في عرضِهِ من جهةِ المشرقِ ثمانين ذراعاً، فتمَّ العرضُ مائتي ذراعٍ وثلاثين ذراعاً.وكان عددُ بلاطاته أحدَ عشرَ بلاطاً، عرضُ أوسطِها ستةَ عشرَ ذراعاً، وعرضُ كلِ واحدٍ من اللذين يليانه غرباً واللذين يليانهِ شرقاً أربعةَ عشرَ ذراعاً، وعرضُ كلِ واحدٍ من الستةِ الباقيةِ أحدَ عشرَ ذراعاً.

وزاد ابنُ أبي عامرٍ فيه ثمانيةً عرضُ كلِ واحدٍ عشرةُ أذرعٍ، وكان العملُ في زيادةِ المنصورِ سنتين ونصفاً، وخدم فيه بنفسهِ. وطولُ الصحنِ من المشرقِ إلى المغربِ مائةُ ذراعٍ وثمانيةٌ وعشرون ذراعاً، وعرضهُ من القبلةِ إلى الجوفِ مائةُ ذراعٍ وخمسةُ أذرعٍ، وعرضُ كلِ واحدةٍ من السقائفِ المستديرةِ بصحنهِ عشرةُ أذرعٍ، فتكسيرُهُ ثلاثةٌ وثلاثون ألفَ ذراعٍ ومائةٌ وخمسون ذراعاً. وعددُ أبوابهِ تسعةٌ، ثلاثةٌ في صحنهِ غرباً وشرقاً وجوفاً. وأربعةٌ في بلاطاته: اثنان شرقيان واثنان غربيان، وفي مقاصيرِ النساءِ من السقائفِ بابان.

وجميعُ مافيه من الأعمدةِ ألفُ عمودٍ ومائتا عمودٍ وثلاثةٌ وتسعون عموداً رخاماً كلُّها، وبابُ مقصورةِ الجامعِ ذهبٌ، وكذلك جدارُ المحرابِ وما يليه قد أُجريَ فيه الذهبُ على الفسيفساء، وثُرياتُ المقصورةِ فضةٌ محضةٌ، وارتفاعُ الصومعةِ ثلاثةٌ وسبعون ذراعاً إلى القبةِ المفتَّحةِ التي يستديرُ بها المؤذنُ، وفي رأسِها تفافيحُ[1] ذهبٍ وفضةٍ، ودورُ كلِ تفاحةٍ ثلاثةُ أشبارٍ ونصفٌ، فاثنتان من التفافيحِ ذهبُ إبريزٍ، وواحدةٌ فضةٌ، وتحت كلِ واحدةٍ منها وفوقَها سو سنة قد هُندِستْ بأبدعِ صنعةٍ، ورمانةُ ذهبٍ صغيرةٌ على رأسِ الزجّ، وهي إحدى عجائبِ الدنيا، وغرائبِ الأرضِ.[2]

---

[1] وروي رمانات بدل تفافيح.

[2] نفح الطيب بتصرف.

مدينة الزهراءِ

وأما مدينةُ الزهراءِ فهي المدينةُ الجميلةُ التي ابتناها أميرُ المؤمنين عبدُ الرحمنِ الناصرُ لدينِ اللهِ، وهي من المدن الجليلةِ القدرِ، العظيمةِ البنيانِ، وأعظمُ مافيها مسجدُها الجامعُ الذي لم يرَ الناسُ أجملَ منه روعةً وبهاءً. ذكر في نفحِ الطيبِ نقلاً عنِ الفرضي أنه قال : كان يعملُ في جامعِها حين شرِعَ فيه من حذّاقِ الفَعلَةِ كلَّ يومٍ ألفُ نسمةٍ : منها ثلاثمائةِ بناءٍ، ومائتا نجارٍ، وخمسمائةٍ من الأجراءِ وسائرِ الصنائعِ، فاستتم بنيانهُ وإتقانُهُ في مدةٍ من ثمانيةٍ وأربعين يوماً، وجاء في غايةِ الإتقانِ من خمسةِ أبهاءٍ عجيبةِ الصنعةِ. ولقد بلغ طولُهُ من القبلةِ إلى الجوفِ ثلاثين ذراعاً، وعرضُ البهو الأوسطِ من أبهائهِ من الشرقِ إلى الغربِ ثلاثةَ عشرَ ذراعاً، وعرضُ كلِ بهوٍ من الأربعةِ المكتنفةِ له اثنا عشرَ ذراعاً.

وطولُ صحنِه المكشوفِ من القبلةِ إلى الجوفِ ثلاثةٌ وأربعون ذراعاً، وعرضُهُ من الشرقِ إلى الغربِ واحدٌ وأربعون ذراعاً، وجميعهُ مفروشٌ بالرخامِ الخمري، وفي وسطِهِ فوّارةٌ يجري فيها الماءُ، فطولُ هذا المسجدِ أجمعَ من القبلةِ إلى الجوفِ – سوى المحرابِ– سبعةٌ وتسعون ذراعاً، وعرضُهُ من الشرقِ إلى الغربِ تسعةٌ وخمسون ذراعاً، وطولُ صومعتِه في الهواءِ أربعون ذراعاً، وعرضُها عشرةُ أذرعٍ في مثلِها[1]

قصرُ الزهراءِ

أما قصرُ الزهراءِ المتناهي في الجلالةِ والفخامةِ، والبهاءِ والروعةِ، فقد أجمَعَ الناسُ على أنه لم يُبنَ مثلُهُ في الإسلامِ البتةَ، وما دخله أحدٌ من البلادِ النائيةِ، والنحلِ

[1] نفخ الطيب.

المختلفةِ مع تنوعِ طبقاتِهم، واختلافِ درجاتِهم من ملكٍ
واردٍ، ووكيلٍ وافدٍ، وتاجرٍ جهبذٍ إلاّ أبدى إعجابه، وقطع
أنه لم يرَ له شبهاً في طولِ الأرضِ وعرضها، بل صَرَّحَ أنه لم
يسمعْ بمثلِه، حتى إنه كان أعجبَ مايؤملُهُ زائرُ الأندلسِ أو
عابرُها النظرُ إليه، والتحدثُ عن جمالِه وجلالِه، وروعةِ
هندستِه، وإتقانِ بنائِه وزخرفتِه، ولو لم يكنْ فيه إلا السطحُ
الممرّدُ المشرفُ على الروضةِ المباهي بمجلسِ الذهبِ والقبةِ
وعجيبِ ما تضمنه من إتقانِ الصنعةِ، وبراعةِ الملبسِ والحُلّةِ
مابين مرمرٍ مسنونٍ، وذهبٍ مصونٍ، وعَمَدٍ كأنما أُفرِغَتْ في
القوالبِ، ونقوشٍ كالرياحينِ، وبركٍ عظيمةٍ محكمةِ الصنعةِ،
وحياضٍ وتماثيلَ عجيبةِ الأشخاصِ لا تهتدي الأوهامُ إلى
سبيلِ استقصاءِ التعبيرِ عنها. فسبحان الذي أقدَرَ هذا
المخلوقَ الضعيفَ على إبداعِها واختراعِها من أجزاءِ الأرضِ

المنحلّة كما يُريَ الغافلين عنه من عباده مثالاً لما أعَدَّهُ لأهلِ السعادةِ في دارِ المقامةِ التي لا يتسلط عليها الفناءُ، ولا يحتاج إلى الرَمّ، لاإله إلاّ هو المنفردُ بالكرمِ...!! انتهى من نفحِ الطيبِ بتصرفٍ. وذكر ابنُ حيّانَ: أن مبانيَ قصرِ الزهراءِ اشتملَتْ على أربعةِ آلافِ ساريةٍ مابين كبيرةٍ وصغيرةٍ حاملةٍ ومحمولةٍ... وتابع قائلاً: منها ماجُلِبَ محمولاً من مدينةِ روما، ومنها ما أهداه صاحبُ القسطنطينيةِ، وأنَّ مصا ريع أبوابِها صغارِها وكبارِها كانت تزيدُ على خمسةَ عشرَ ألفَ بابٍ، وكلُّها ملبسةٌ بالحديدِ والنحاسِ المُموَّهِ، واللهُ سبحانه وتعالى أعلمُ، فإنها كانت من أهولِ ما بناه الإنسُ، وأجلِهِ خطراً، وأعظمِهِ شأناً. وقال: بدأ عبدُ الرحمنِ الناصرُ لدينِ اللهِ بنيانَ الزهراءِ أولَ سنةِ خمسٍ وعشرين وثلاثمائةٍ، وكان مبلغُ ما ينفق فيها كلَّ يومٍ من الصخرِ المنحوتِ المنجورِ ستةَ آلافِ

صخرةٍ، سوى الصخرِ المصرَّفِ في التبليطِ، فإنه لم يدخلْ في هذا العددِ، وجلب إليها الرخامَ من قرطاجنة وإفريقيةَ وتونسَ، فكان يصلُ حامليها على كلِ رخامةٍ صغيرةٍ وكبيرةٍ بعشرةِ دنانيرَ، ولقد قدرَ بعضُهم ما أنفقه الناصرُ في بناءِ الزهراءِ في كل عامٍ بثلاثمائةِ ألفِ دينارٍ مدةَ خمسةٍ وعشرين عاماً ...!! فتأملْ. ولقد قال أبو عثمانَ بنُ إدريسَ، وكان يلَقَّبُ بالرئيسِ، وهو يمدحُ الناصرَ:

سيشهدُ ما أبقيت أنكَ لم تكنْ ... مضيعاً وقد مكّنتَ للدينِ والدنيا

فبالجامعِ المعمورِ للعلمِ والتقى ... وبالزهرةِ الزهراءِ للمُلْكِ والعليا

فابتهج المنصورُ، واهتزَّ طرباً، وكان القاضي المنذرُ بنُ سعيد واقفاً معهما يعظُ المنصورَ، فأطرق ساعةً، ثم قام منشداً فقال:

يابانيَ الزهراء مستغرقــاً أوقاتَهُ فيـــها أما تمـــهلُ
لله ما أحسنها رونقــــاً لو لم تكنْ زهرتُها تذبلُ

وكان الناصرُ قد قال للمنذِر بنِ سعيدٍ:

هِممُ الملوكِ إذا أرادوا ذكرَهـــا من بعدِهِم فبألســـن البنيـــانِ
أوَ ماترى الهرمين قد بقيا وكم ملكٍ محاهُ حوادثُ الأزمــــانِ
إنَّ البناءَ إذا تعاظَمَ شأنُهُ أضحى يدلُّ على عظيمِ الشانِ

هذا... وإنَّ أخبارَ الزهراءِ وقصورها ومسجدِها وحدائِقها، وما تركه المسلمون كثيرةٌ جداً أشهرُ من أن تذكَرَ، وأروعُ من أن تُستقصى أو يحيطَ بها عقلُ بشرٍ.

مدينةُ الزاهرةِ

أما مدينةُ الزاهرةِ فهي التي ابتناها المنصورُ بنُ أبي عامرٍ، وأنفق في بنائها مالا يقلُّ عمّا أنفقهُ عبدُ الرحمنِ الناصر لبناءِ الزهراءِ، فَبدَتْ كلٌّ منهما آيةً في البهاءِ والجمالِ، والجلالِ والزخرفةِ، وأضحتا من روائعِ ذلك العصرِ وعجائبِ الدنيا على مَرِّ العصورِ والأجيالِ شاهدةً بعظمةِ الرجالِ العظامِ الذين شادوها وأقاموها وأنفقوا في سبيلِها الأموالَ الكثيرة دون بخلٍ أو شحٍ أو خوفِ فقرٍ، أو زوالِ الملكِ والسلطانِ من أيديهِم، بل على العكسِ من ذلك فلقد اشتدَّ ملكُ المنصورِ بنِ أبي عامرٍ منذ ابتنى قصرَ الزاهرةِ ونزل فيه، وتوسَّعَ في تجديدِهِ مع الأيامِ، حتى كمُلَ أحسنَ كمالٍ، وبدا في غايةِ الجمالِ من إشادةِ بناءٍ، وسعةِ فناءٍ، واعتدالِ هواءٍ، الأمرُ الذي جعل الشعراءَ يتسابقون في وصفِهِ ومدحِ

بانيهِ الخليفةِ المنصورِ بنِ أبي عامرٍ، فهذا الشاعرُ صاعدٌ اللغويُّ يقولُ:

يا أيها الملكُ المنصـــورُ مـــن يُمنٍ	والمبتني نسباً غير الذي انتســـبا
بغزوةٍ في قلوبِ الشـــركِ رائعـــةٍ	بين المنايا تناغي الســـمْرَ والقُضُبا
أما ترى العينَ تجري فوقَ مر مرها	هوىً فتُجري على أحفافِها الطربا
أجريتَها فطما الزاهـــي بـــجريتِها	كما طموتَ فسُدْتَ العُجَم والعربا
تخالُ فيه جنـــودَ الـــماءِ رافـــلةً	مستلئمات تُريكَ الـــدرعُ والبَلْبا
تحفُها من فنونِ الأيـــكِ زاهـــرةٌ	قد أورقَتْ فضةً إذ أورقـــتْ ذهبا
بديعةُ الملكِ ما ينفـــك ناظـــرُها	يتلو على السمعِ منها آيةً عَجـــبا
لا يحسن الدهرُ أن ينشي لها مثلاً	ولو تعنّتْ إليهـــا نفسُـــهُ طلبـــا

وقـــال ابنُ حمديسَ الصقلي يصفُ داراً بناها المعتمدُ على الله:

ألا حبذا دارٌ قضى الله أنها ... يجُدَّدُ فيها كلُّ عزٍ ولا يبلى[1]

مقدسَةٌ لو أنّ موسى كليمَهُ ... مشى قدُماً في أرضِها خلع النعلا

وماهي إلا خطةُ الملكِ الذي ... يخطُّ إليه كلُّ ذي أملٍ رجلا

إذا فُتحتْ أبوابُها خلْتَ أنها ... تقولُ بترحيبٍ لداخلها أهلا

وقد نقلَتْ صُنّاعها من صفاتِه ... إليها أفانيناً فأحسنتِ النقلا

فَمَنْ صَدْرُهُ رَحْباً ومَنْ نورُهُ سناً ... ومنْ صيتُهُ فرعاً ومَنْ حلمه أصلا

فأعلتْ به في رتبة الملك نادياً ... وقلَّ له فوق السماكين أن يُعلى

نسيتُ به إيوانَ كسرى لأنني ... أراه له مولىً من الحسْنِ لامثلا

كأنَّ سليمانَ بنَ داودَ لم تُبحْ ... مخافتهُ للجنِّ في صنعه مهلا

ترى الشمسَ فيه ليقةً تستمدّها ... أكفٌّ أقامَتْ من تصاويرها شكلا

لها حركاتٌ ابدعت في سكونِها ... فما تبعتْ في نقلهنَّ يدٌ رجلا

ولما عَشينا من توقُّدِ نورِها ... تخذْنا سناه في نواظرِنا كحُلا

وقـــال في قصيدةٍ أخرى يصفُ داراً بناها المنصورُ بنُ أعلى الناسِ:

---

(1) معركة وادي الحجارة

أعْمرْ بقصرِ الملك ناديَكَ الذي أضحى بمجدكَ بيتُهُ معمورا
قصرٌ لو انَّكَ قد كحلْتَ بنورِهِ أعمى لعادَ إلى المقامِ بصيرا
واشتق من معنى الحياةِ نسيمُه فيكادُ يحدثُ للعظامِ نشورا
نُسيَ الفصيحُ من المليحِ بذكرِهِ وسما ففاق خوَرْنقاًوسديرا
ولو أنَّ بالإيوانِ قوبلَ حسنُه ماكان شيئاً عنده مذكورا
أعيَتْ مصانعُهُ على الفرسِ الألى رفعوا البناءَ وأحكموا التدبيرا
ومضَتْ على الرومِ الدهورُ ومابنوا لملوكهم شبهاً له ونظيرا
أذكرتنا الفردوس حين أريتنا غرفاً رفَعْتَ بناءَ ها وقصورا
فالمحسنون تزيّدوا أعمالَهم ورجّوا بذلك جنةً وحريرا
والمذنبون هُدوا الصراطَ وكُفِّرتْ حسناتُهم لذنوبهم تكفيرا
فلكٌ من الأفلاكِ إلا أنه حَقَرَ البدورَ فأطلع المنصورا
أبصرتُهُ فرأيتُ أبدعَ منظرٍ ثم انثنيتُ بناظري محسورا
وظننتْ أني حالمٌ في جنةٍ لّما رأيتْ المُلْك فيه كبيرا
وإذا الولائدُ فتحَتْ أبوابَهُ جعلتْ ترحبُ بالعفاةِ صريرا
عضّت على حلقاتهنَّ ضراغمٌ فَغرتْ بها أفواهها تكشيرا
فكأنها لبَدتْ لتهصرَ عندها مَنْ لم يكنْ بدخولِهِ مأمورا
تجري الخواطرُ مطلقاتِ أعنةٍ فيه فتكبو عن مداه قصورا
بمرخّمِ الساحاتِ تحسبُ أنه فُرِشَ المها وتوشّح الكافورا
ومحَصَّبٌ بالدّرِ تحسبُ تُرْبَهُ مسكاً تضوَّعَ نشرهُ وعبيرا
تستخلفُ الأبصارُ منه إذا أتى صبحاً على غَسَقِ الظلامِ منيرا

معركة وادي الحجارة

ثم ذكر بركةً رائعةً في القصرِ عليها أشجارٌ من ذهبٍ وفضةٍ ترمي فروعَها المياهُ المتدفقةُ بين أصولها، وأفاض بذكرِ ذلك فأجاد، وأتى بكلِ بديعٍ فذكر تماثيلَ لأسودٍ على حافاتِها قاذفةٍ بالمياهِ فقال:

وضـراغمٌ سـكَنَتْ عـرينَ رياسـةٍ ... تـركَتْ خريـرَ المـاء فيـه زئـيرا

فكأنما غشّـى النُضـارُ جسـومَها ... وأذابَ في أفواهِهـا البـلّورا

أُسْـدٌ كـأنَّ سـكونَها مـتحركٌ ... في النفسِ لووَجَـدَتْ هـناك مـثيرا

وتذكّـرتْ فـتكاتِها فكأنما ... أقْعـتْ عـلى أدبارِهـا لتـثورا

وتخالُهـا والشـمسُ تجـلولوئها ... نـاراً وألسُـنها اللـواحسَ نـورا

فكأنما سَـلّتْ سـيوفَ جـداولٍ ... ذابَـتْ بـلا نـارٍ فعُـدْنَ غديـرا

وكأنما نسَـجَ النسـيمُ لمائـهِ ... دِرعـاً فقـدَّرَ سـردَها تقديـرا

وبديعـةُ الـثمراتِ تعـبرُ نحوهـا ... عيـناي بحـرَ عجـائبٍ مسـجورا

شـجريةٌ ذهـبيةٌ نـزَعتْ إلى ... سِـحرٍ يؤثـرُ في النهى تـأثيرا

قـــد صـــوبتْ أغصـــانُها فكأنمـــا قنصَـــتْ بهـــنَّ مـــن الفضـــاء طيـــورا

وكأنمـــا تـــأبى لواقـــعِ طيرِهـــا أنْ تســـتقلَّ بنهضـــها وتطـــيرا

مـــن كـــلِ واقعـــةٍ تـــرى مـــنقارَها مـــاءً كسلســـالِ الـــلُّجين نمـــيرا

وكأنمـــا في كـــلِ غصـــنٍ فضـــةٌ لانـــتْ فأُرسِـــل خيطهُـــا مجـــرورا

وتـــريكَ في الصـــهريجِ موقـــعَ قطـــرها فـــوقَ الزبـــرجدِ لؤلـــؤاً منـــثورا

ضـــحكتْ محاســـنُهُ إليـــك كأنمـــا جعـــلَتْ لهـــا زهـــرُ الـــنجومِ ثغـــورا

ومصـــفّحُ الأبـــوابِ تـــبراً نظّـــروا بالـــنقشِ فـــوق شـــكولِه تـــنظيرا

تـــبدو مســـاميرُ النُّضـــارِ كمـــا عَـــلَتْ تـــلك الـــنهودُ مـــن الحســـان صـــدورا

خـــلَعتْ عـــليه غلائـــلاً ورْســـيّةً شمـــسٌ تـــردُّ الطـــرفَ عـــنه حســـيرا

وإذا نظـــرتَ إلى غـــرائبِ ســـقفه أبصـــرتَ روضـــاً في الســـماءِ نضـــيرا

وعجـــبت مـــن خُطّافِ من عسجدِه التي حـــامتْ لتـــبنيَ في ذراه وكـــورا

وضـــعتْ بـــه صُـــنّاعُهُ أقلامَهـــا فـــأرتْكَ كـــلَّ طـــريدةٍ تصـــويرا

ثم ختم قصيدتَهُ بمدحِ المنصورِ فقال:

يامالكَ الأرضِ الذي أضحى له ... مَلِكُ السماءِ على العُداةِ نصيرا
كم من قصورٍ للملوكِ تقدَّمتْ ... واستوجَبَتْ بقصورِكَ التأخيرا
فعمرتَها وملكْتَ كلَّ رياسةٍ ... منها ودمَّرْتَ العدا تدميرا

ومن أروعِ آثارِ المسلمين في الأندلسِ، وأجملِ ماشادوا من بناءٍ وزخرفةٍ، ومن أعظمِ ماتركوا من حضارةٍ تشهدُ بعظمتِهم وتفوقِهم في البناء والزخرفةِ، وتنطقُ بأعذبِ الكلماتِ شاهدةً بتقدمهِم ومدينتهم وبراعتِهم القناةُ الرائعةُ الإحكامِ والهندسةِ، وهي القناةُ التي أمَرَ الناصرُ لدينِ اللهِ ببنائِها لاحتضانِ المياهِ العذبةِ المنسابةِ من جبلِ قرطبةَ لجرها إلى القصرِ المسمّى بالناعورةِ، ثم انسيابها بهندسةٍ عجيبةٍ، وصناعةٍ محكمةٍ إلى بركةٍ عظيمةٍ، عليها تمثالُ أسدٍ جميلِ الصورةِ، بديعِ الصنْعةِ، شديدِ الروعةِ، لم يشاهَدْ أبهى منه فيما صَوَّرَ الملوكُ في عابرِ الدهرِ، ومرورِ الزمنِ، مطليٌّ

بذهبٍ إبريزٍ، وعيناه جوهرتان لهما وميضٌ شديدٌ، يجري الماءُ العذبُ النميرُ إلى عجزِ هذا الأسدِ، فيمجُّهُ في تلك البركةِ مِنْ فيه، فينبهرُ الناظرُ بحسنِهِ وروعةِ منظرِهِ، وثَجاجةِ صبّهِ، فتسقى من مُجاجِهِ جنانُ القصرِ على سِعتها، ويستفيضُ على ساحاتِهِ وجنباتِهِ، ثم ينصبُّ مافضَلَ منه في النهرِ.

فكانت هذه القناةُ وبركتُها والتمثالُ الذي يصبُّ فيها من أعظمِ آثارِ العربِ المسلمين على اختلافِ الأزمنةِ، لبعدِ مسافتِها، واتّساعِ مساحتِها، واختلافِ مسالكِها، وفخامةِ بنيانيها، وإحكامِ صنتعِها، وبراعةِ هندستِها، وسموّ أبراجِها التي يترقى الماءُ منها، ويتصوَّبُ من أعاليها، فهي بحقٍ آيةُ ذلك الزمانِ وكلِ زمانٍ، ومعجزةُ إبداعِ حضارةِ المسلمين إلى يوم القيامةِ. وما أجملَ قولَ أحدِ الشعراءِ الأندلسيين وهو يصفُ بركةً جميلةً عليها فوّاراتٌ ساحرةٌ تملأُ العينَ جمالاً وبهاءً، والقلبَ بهجةً وسروراً فقال :

غضبَتْ مجاريها فأظهر غيظُها ... مافي حشاها مِنْ خفّيٍ مضمرِ
وكأنّ نبعَ الماءِ من جنباتِـــها ... والعينُ تنظرُ منه أحسنَ منظر
قضُبٌ من البللورِ أثمرَ فرعُها ... لما انتهَتْ باللؤلـــؤِ المنـــحّدرِ

خاتمة
في ذكرِ الحنينِ إلى آثار الأجداد والبكاءِ على الأطلال

قال أعرابيٌّ وهو يصفُ محلةَ قومٍ ارتحلوا عنها، وخلفوا فيها أحزاناً عميقةً، وآلاماً مُمِضَّةً، وآثاراً تدعو إلى العظةِ والأعتبارِ: ارتحلَتْ عنها رباتُ الخدورِ، وأقامَتْ بها أثافيُّ القدورِ، ولقد كان أهلُها يعفون آثارَ الرياحِ، فعَفَتِ الرياحُ آثارَهم، وذهبَتْ بأبدانِهم وأبقَتْ أخبارَهم، والعهدُ قريبٌ، واللقاءُ بعيدٌ. وقال أحدُ الشعراءِ:

يادارُ أمسى دارساً رسْمُها وحشاً قفاراً ما بها آهلُ
قد جَرَّتِ الريحُ بها ذيلَها واستنّ في أطلالِها الوابلُ

وقال أبو صخرٍ القرطبيُّ :

ديارٌ عليها منْ بشاشةِ أهلِها بقايا تَسرُّ النفسَ أُنساً ومنظرا
ربوعٌ كساها المزنُ من خِلَعِ الحيا بروداً وحلّاها من النوَّرِ جوهرا
تُسرُّكَ طوراً ثم تُشجيكَ تارةً فترتاحُ تأنيساً وتشجى تذكُّرا

وقال آخرُ وهو يصفُ الزهراءَ، ويبثُّ آلامَهُ وأحزانَهُ، ويتألمُ على فراقِ الوطنِ، ويبكي على ضياعِ العزِ، وميراثِ الأجدادِ:

وقفتُ بالزهراءِ مستعبراً معتبراً أندبَ أشتاتا
فقلتُ يازهراءُ ألا فارجعي قالتْ وهل يرجعُ مَنْ ماتا ...؟
فلم أزلْ أبكي وأبكي بها هيهاتَ يُغني الدمعُ هيهاتا
كأنَّ آثارَ مَنْ قد مضى نوادبُ يندبْنَ أمواتا

وذلك كثيرٌ في أدبِ الأندلسيين الذين أظهروا اللوعةَ والحزنَ على فراقِ الوطنِ، وبكوا على الأطلالِ والآثارِ، فنكتفي بهذا القدرِ من ذكرِ بعضِ أقوالِهم وأشعارِهم في هذا المجالِ، واستعراضِ بعضِ الآثارِ العمرانيةِ، والأعمالِ العظيمةِ والرائعةِ التي لانستطيعُ ذكرها كلّها في هذه العجالةِ، إذ ليس هذا مجالَها، لذلك نكتفي بهذا المرورِ السريعِ كيلا تخرجَ الرسالةُ عن مضمونِها، وتتجاوزَ حجمهَا الطبيعي، وماذكرتُهُ من آثارٍ جليلةٍ، وقصورٍ شاهقةٍ، وحدائقَ بديعةٍ، ومساجدَ عظيمةٍ، وهي بمجموعها تترجمُ حضارةً رائعةً شاهدةً بعظمةِ الرجالِ العظامِ الذين أرسوَا قواعدَها، وشادوا بنيانَها، وقدموا للبشريةِ أروعَ حضارةٍ إنسانيةٍ عرفَتْها الدنيا. لقد بنى العربُ المسلمون في الأندلسِ مدنيةً، وأقاموا دولةً، وأنشؤوا حضارةً، وأثبتوا للعالمِ كلهِ أنهم قومٌ يدينون بالإسلامِ القائمِ على الرحمةِ والعدالةِ والتسامحِ والإنسانيةِ، وأنهم حين قاتلون لم يقاتلوا حباً بالقتالِ، أو رغبةً بسفكِ الدماءِ، أوسعياً لجمعِ الغنائمِ، أو طمعاً بالمناصبِ، وإنما كانوا يقاتلون لنشرِ

الإسلامِ، وإعلاءِ كلمته، ورفعِ لوائه فوق بقاعِ الأرضِ التي يفتحونها ليحققوا العدلَ بين أهلِها، ويخرجوهم من عبادةِ العبادِ إلى عبادةِ اللهِ الواحدِ القهارِ، ويغرسوا في نفوسهِم عقيدةَ التوحيدِ، والإيمانِ باللهِ تعالى وحده فاعلاً مدبراً، مريداً مختاراً. ولقد نجح المسلمون في ذلك، إذ لمسوا من أهلِ تلك البلادِ تجاوباً سريعاً، وتقبلاً ملموساً، وتفاعلاً عجيباً، وذلك أنهم كانوا قد سئموا العقيدةَ التي كانوا يحملونها ويدينون بها من جاهليةٍ ووثنيةٍ وتثليثٍ، ولم تعدْ فطرتُهم تسيغُ عبادةَ صورٍ وتماثيلَ لأشخاصٍ أو طيورٍ أو حيواناتٍ فُرِضَ عليهم أن يعبدوها، أو يخصّوها بالخضوعِ والطاعةِ، فحين جاءهم المسلمون أعلنوا أنهم جاؤوهم لإحقاقِ الحقِ، وفرضِ العدلِ، وإنصافِ المظلومِ، وردعِ الظالمِ، وليدعوهم إلى العقيدةِ الصحيحةِ، وليحكموا بينهم بشرعِ اللهِ الذي يقولُ: **﴿ إنِ الحكمُ إلا للهِ يقصُّ الحقَ وهو خيرُ الفاصلين ﴾**[1] **﴿قد جاءكم من اللهِ نورٌ وكتابٌ**

---

[1] الآية ٥٧ من سورة الأنعام.

مبينٌ. يَهدي بهِ اللهُ مَنِ اتَّبعَ رضوانَهُ سبلَ السلام ويخرجُهم مِنَ الظلماتِ إلى النورِ بإذنهِ ويَهديهم إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾[1] فلم يلمسوا منهم إلا الصدق والوفاء بالعهد والمحافظة على الميثاق والالتزام بما عاهدوهم عليه فكان نتيجة هذا أن دخلوا في دين الله أفواجاً..والحمد لله رب العالمين

استيطانُ العرب في الأندلس

فتح المسلمون الأندلس ،واستقروا فيها، وبنوا دولةً، أرسوا بنيانَها، ورسّخوا قواعدَها، ووطدوا أركانها، وحكموا بين أهلِها بالعدلِ، وأقاموا بينهم حكمَ اللهِ تعالى. أخذ العربُ يتطلعون إلى الأندلسِ، راغبين في السفرِ إليها وجعلِها موطناً دائماً لهم، فنـــزل بها زعماؤهم وساداتهم، واستقروا بها، وتناسلوا فيها، وأورثوها أبناءَهم.

[1] الآيتان ١٥-١٦ من سورة المائدة .

ثبتٌ بأسماءِ الأمراءِ

وهنا أحبُ أن أذكرَ أسماءَ هؤلاءِ السادةِ والأمراءِ نقلاً عن كتابِ نفحِ الطيبِ، قال صاحبهُ: وقد رأيتُ أن أسردَ هنا أسماءَ ملوكِ الأندلسِ من لدنِ الفتحِ إلى آخرِ ملوكِ بني أميةَ، وإن تقدمَ ويأتِي ذكر جملةٍ منهم بما هو أتمُّ مِمّا هنا، فنقولُ: طارقُ بنُ زيادٍ مولى موسى بنِ نُصَيرٍ[1] ثم الأميرُ موسى بنُ نصيرٍ، وكلاهما لم يتخذ سريراً للسلطنةِ. ثم عبدُ العزيزِ بنُ موسى بنِ نُصَيرِ، وسريرُهُ إشبيليةُ[2]. ثم أيوبُ بنُ حبيبٍ اللخميّ، وسريرهُ قرطبةُ[3]، وكلُ مَنْ يأتِي بعده فسريرُهُ قرطبةُ أو الزهراءُ والزاهرةُ بجانبيها إلى أنِ انقضَتْ دولةُ بني

[1] وقد تقدم الحديثُ عنهما مستوفىً في الرسالةِ السابقةِ ضمن هذه المجموعة وهي (معركة فتح الأندلس)

[2] إشبيلية: مدينة عظيمة بالأندلس، وتسمى حمص أيضاً وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره.

[3] قرطبة: تقع وسط الأندلس وكانت عاصمة الأمويين بالأندلس.

مروانَ ثم الحرُّ بنُ عبدِ الرحمنِ الثقفيُّ. ثم السمحُ بنُ مالكٍ الخولانيُّ. ثم عبدُ الرحمنِ بنُ عبدِ اللهِ الغافقيُّ. ثم عنبسةٌ بنُ سُحَيم الكلبيُّ[1]. ثم عذرةُ بنُ عبدِ اللهِ الفهريُّ. ثم يحيى بنُ سلمةَ الكلبيُّ. ثم عثمانُ بنُ أبي نسعةَ الخثعميُّ. ثم حذيفةُ بنُ الأحوصِ القيسيُّ. ثم الهيثمُ بنُ عَدي الكلابيُّ. ثم محمدُ بنُ عبدِ اللهِ الأشجعيُّ. ثم عبدُ الملكِ بنُ قطن الفهريُّ. ثم بلجُ بنُ بشرٍ بنِ عياضٍ القشيريُّ. ثم ثعلبةُ بنُ سلامةَ العامليُّ. ثم أبو الخطارِ – حسامُ بنُ ضرارٍ الكلبيُّ. ثم ثوابةَ بنُ سلامةَ الجذاميُّ. ثم يوسفُ بنُ عبدِ الرحمنِ الفهريُّ. وهنا انتهى الولاةُ الذين ملكوا الأندلسَ من غيرِ موارثةٍ.

---

[1] تقدم التعريف به في الرسالة السابقة: فتح الأندلس.

حكام بني أمية

قال: ثم كانت دولةُ بني أميةَ، وأولهم عبدُ الرحمنِ بنُ معاويةَ بنِ هشامٍ بنِ عبدِ الملكِ. ثم ابنهُ هشامٌ الرضى. ثم ابنهُ الحكمُ بنُ هشامٍ. ثم ابنهُ عبدُ الرحمنِ الأوسطُ. ثم ابنُه محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ. ثم إبنهُ المنذرُ بنُ محمدٍ. ثم أخوه عبدُ اللهِ بنُ محمد. ثم ابنُ ابنهِ عبدُ الرحمنِ الناصرُ بنُ محمدٍ بنِ عبدِ اللهِ. ثم ابنهُ الحكمُ المستنصرُ، وكرسيهُما الزهراءُ. ثم هشامُ بنُ الحكمِ، وفي أيامهِ بنى حاجبُه المنصورُ بنُ أبي عامرٍ[1] مدينةَ الزاهرةِ. ثم المهديُّ محمدُ بنُ هشام بنِ عبدِ الجبارِ بنِ الناصرِ، وهو أولُ خلفاءِ الفتنةِ، وهدّمَتْ في أيامهِ الزهراء والزاهرةُ، وعاد السريرُ إلى قرطبةَ. ثم المستعينُ سليمانُ بنُ الحكمِ بنِ سليمانَ بنِ الناصرِ.

---

[1] تقدم الحديث عنه وعن مدينتهِ الزاهرةِ.

الحموديون

قال: ثم تخلّلَتْ دولةُ بني حمودٍ العلويين، وأولُهمُ الناصرُ عليٌّ بنُ حمّودٍ العلويُّ الحسني الإدريسيُّ. ثم أخوه المأمونُ القاسمُ بنُ حمّودٍ. ثم المعتلي يحيى بنُ الناصرِ عليٌّ بنُ حمّودٍ.

بقيةُ بني أمية

قال: ثم كانت دولةٌ بني أميةَ الثانيةُ. وأولُها المستظهرُ عبدُ الرحمنِ بنُ هشام بنِ عبدِ الجبارِ بنِ الناصرِ. ثم المستكفي محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ عبيدِ اللهِ بنِ الناصرِ. ثم المعتمدُ هشامُ بنُ محمدٍ بنِ عبدِ الملكِ بنِ الناصرِ، وهو أخرُ خلفاءِ الجماعةِ بالأندلسِ. وحين خُلعَ أسقط ملوكُ الأندلسِ الدعوةَ للخلافةِ المروانيةِ[1].

---

[1] نفح الطيبِ

ملوكُ الطوائفِ ومَنْ بَعدَهم

واسبدَّتْ ملوكُ الطوائفِ في الأندلسِ، كبني جهورٍ الذين كانوا وزراءَ الأمويين، فلما انتثرَ سلكُ الخلافةِ استبدَّ بقرطبةَ الوزيرُ أبو الحزمِ بنُ جهورٍ، وكذلك فعل ابنُ عبادٍ بإشبيليةَ وكذلك الأمر في معظمِ البلادِ، فاستشرى الشرُّ، وعمَّ الفسادُ، ودبَّتِ الفوضى، وبلغتِ الفتنة مداها، وتفرقتِ البلادُ، وكثرَتْ الحكامُ، وانتقضَ أمرُ الأندلسِ، ولم يعدِ النظامُ فيها لأميرٍ واحدٍ، إلى أن ملكَ زمامَ الأمورِ فيها، الأميرُ الملّثم يوسفُ بنُ تاشفينَ الذي فتك في ملوكِ الطوائفِ، وقضى على سلطانِهم، وحاول أن يعمَّ الأمنُ والخيرُ الأندلسَ كلّها، ولكن تجري الرياحُ بما لاتشتهي السفنُ، فلم يتمكّنْ ابنُ تاشفينَ من تحقيقِ أحلامهِ، لأن بني هودٍ نازعوه في شرقِ الأندلسِ بالثغرِ، فلم تصفُ له الأمورُ، ولم يستمرَّ في الحكمِ

طويلاً إذ وقع شهيداً كما سيأتي توضيحُهُ في معركةِ الزلاقةِ إن شاء الله تعالى. هذا... ومن ناحيةٍ أخرى كانتِ الحروبُ والمعاركُ تقعُ بين الحينِ والآخرِ بين المسلمين والكفارِ، إذ لم تصفُ الأمورُ لهم في الأندلسِ، ووقع الاختلافُ بعد الائتلافِ، ودبَّتِ الفوضى بعد الأمنِ، وظهر الخوفُ بعد الأطمئنان، وجاء الشرُّ بعد الخيرِ، وتبعَهُ العسرُ بعد اليسرِ، وعصفتْ رياحُ الفتنةِ بعد أن جمع الكافرون أشتاتَهم، وتجهزوا لقتالِ المسلمين، فدارتْ بينهم معاركُ كثيرةٌ، والحربُ فيها سجالٌ، أعيا علاجها عقلاءَ الرجالِ، فصار أهلُ الأندلسِ يذكرون موسى بنَ نصَيرٍ، وطارقَ بنَ زيادٍ ومَنْ بعدهما من ملوكِ الأندلسِ الذين أحكموا قبضَتهم على البلادِ كلّها، بعد أن أنزلوا بالكافرين البأسَ والشدةَ. وفي ذلك يقولُ القاضي أبو المطرفِ بنُ عميرةَ يصفُ أحوالَ البلادِ والعبادِ حين أطلّتْ الفتنةُ برأسِها، وجعلتْ تخدشُهم بأنيابِها:

ألا أيها القلبَ المصّرحُ بالوجدِ أمالك من بادي الصبابة مِنْ بـُدِّ
وهل مِنْ سلوّ يُرتـجى لمتيـمٍ له لوعةُ الصادي وروعةُ ذي الصَّدّ
يَحنُّ إلى نجدٍ وهيهاتَ حَرَّمَـتْ صروفُ الليالي أن يعـودَ إلى نجدِ
فيا جبلَ الريانِ لا ريٌّ بعد مـا عَدَتْ غيرُ الأيامِ عن ذلك الـورْدِ
ويا أهلَ وُدّي والحوادثُ تقتضي خلُوّيَ عن أهلٍ يضافُ إلى الـودّ
ألا متعةٌ يومـاً بعـاربـةِ المنى فإنّا نراها كـلَّ حـينٍ إلى الـردّ
أمن بعد رُزْءٍ في بلنسيةٍ ثـوى بأحيائنا كالنارِ مضمـرةِ الوقـدِ
يُرجّي أناسٌ جُنّةً من مصـائبٍ تطاعـنُ فيهـم بالمثقـفةِ المُلـدِ
ألاليتَ شعري هل لها من مطالعٍ معادٌ إلى ماكان فيـها من السعدِ
وهل أذنبَ الأبناءُ ذنبَ أبيهـمُ فصاروا إلى الإخراجِ من جنةِ الخلدِ

نعم... فهذه طبيعةُ الدنيا، وصروفُ الليالي، وتقلبُ الأيـامِ. لم تـدُمِ السـعادةُ لأحدٍ، ولم تصفُ الدنيا لبشرٍ، إذ سرعانَ ماتتقلبُ الأمورُ، وتتغيَّرُ الأحوالُ، وتتبدلُ الظروفُ.

والدهـرُ لايـبقى عـلى حَدَثانِـه في رأسِ شـاهقةٍ أعـزُّ مُمَـنَّعُ

عبدُ الرحمن الداخل

علمنا ماكان من نصرِ اللهِ تعالى لعبادِهِ المؤمنين بالأندلسِ، وماحصل لهم من فتحٍ وظفرٍ، وما بنوَا من عزٍ ومجدٍ وسلطانٍ، ولقد ذكر المؤرخون أن دولةَ بني أميةَ بالأندلسِ كانت أنبلَ دولِ الإسلامِ، وأقواها وأنكاها في العدوِّ، ولقد بلغَتْ من العزِ السامي، والنصرِ المؤيدِ، والفتحِ المبينِ الدرجةَ العليا، والغايةَ العظمى، فجعل زعماءُ العربِ وساداتُهم يفدون إليها من مختلفِ البلدانِ، حتى استقروا فيها كما تقدم. قال ابنُ خلدون: وأصلُ هذه الدولةِ أن بني أميةَ لــمّا نزل بهم بالمشرقِ مانزل، وغلبهم بنو العباسِ على الخلافةِ، وأزالوهم عن كرسيها، وقتل عبدُ اللهِ بنُ علي مروانَ بنَ محمدِ بنِ مروانَ بنِ الحكمِ آخرَ خلفائِهم سنةَ اثنتين وثلاثين ومائةٍ، وتتبَّعَ بني مروانَ بالقتلِ، فطلبوا بطنَ الأرضِ من بعدِ ظهرها، وكان مِمّن أُفلِتَ منهم عبدُ الرحمنِ

بنُ معاويةَ بنِ هشامٍ بنِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ، وكان قومهُ يتحينون له ملكاً بالمغربِ، ويرون فيه علاماتِ الملكِ يأثرونها عن مسلمةَ بنِ عبدِ الملكِ، وكان هو قد سمعها منه مشافهةً، فكان يحدثُ نفَسهُ بذلك، فخلص إلى المغربِ، ونزل على أخوالِهِ من برابرةِ طرابلسَ[1].

وروي أنه حين خرج هارباً من الشامِ إلى إفريقيةَ قاصداً الأندلسَ نزل بمغيلةَ، فصار بها عند شيخٍ من رؤساءِ البربرِ يدعى واسوس، ويكنى أبا قرةَ، فاستتر عنده فترةً، ولحق به بدرٌ مولى أبيه، فلما دخل الأندلسَ واستتبَّ أمرُهُ بها لحق به أبو قرةَ واسوس البربريُّ، فأحسن إليه عبدُ الرحمن، وأكرمه، وحظيَ أبو قرةَ عنده بمكانةٍ كريمةٍ، وصار من جنودِهِ يقاتلُ تحت رايتِهِ.

---

[1] تاريخ ابن خلدون ج٤ص١٢٠

نزولُ عبدِ الرحمنِ الداخل أرضَ الأندلسِ

نزل عبدُ الرحمنِ الداخلُ الأندلسَ في ظروفٍ صعبةٍ وحرجةٍ، إذ وافق قدومُهُ ماكان من المشاكلِ والإحنِ بين اليمنية والمضريةِ، هذا من جهةٍ ومن جهةٍ أخرى أن عبدَ الرحمنِ بنَ حبيبٍ علم بمجيئهِ فاحترس منه، واحتاط لأمرِهِ، وجهز رجالاً لقتالِهِ معتقداً أنه جاء ليثأرَ لابَنيْ الوليدِ بنِ يزيدَ اللذيْنَ قتلهما عبدُ الرحمنِ بنُ حبيبٍ حين قدما إفريقيةَ. ومن جهةٍ ثالثةٍ أنّه حين نزلَ بساحلِ المنكّبِ، وعلم المسلمون بمقدمه سارعوا إليه واجتمعوا حوله يبايعونه أميراً، كأهلِ إشبيلية، وكورةِ ريَّةَ وعلى رأسهِم عيسى بنُ مساورٍ، ثم انتقل إلى شذونةَ فبايعه عاملُها عتابُ بنُ علقمةَ اللخميُّ، ثم إلى موررور فبايعه عاملُها ابنُ الصباحِ، ونَهدَ إلى قرطبةَ فاجتمعَتْ إليه اليمنيةُ، وتنامتْ أخبارهُ إلى والي الأندلسِ

يوسفَ بنِ عبدِ الرحمنِ الفهريِّ، وكان غازياً بجلّيقية، فترك القتالَ ورجع إلى قُرْطبةَ للوقوفِ في وجهِ تقدّم عبدِ الرحمنِ الداخلِ، فأشار عليه وزيُرهُ الصُّميلُ بنُ حاتمٍ بالتريثِ والصبرِ، وعدمِ التسرعِ، واستعمالِ المكرِ والخديعةِ، لكونهِ صغيرَ السنِ، حديثَ عهدٍ بنعمةٍ، وأنّه ينبغي التلطُّفُ معه لأن أنصارَهُ ومبايعيه باتوا يشكّلون عدداً كبيراً، وأضحَوْا قوةً في جميعِ أنحاءِ الأندلسِ بحيثُ يحسبُ لها ألفُ حسابٍ، لاسيّما وأنّ اليمنيةَ والمضريةَ مالُوا إليه وبايعُوه، ووقفوا بجانبِهِ لمقاومةِ خصومِهِ ومناوِئيه، حتى إنّه لم يبقَ مع يوسفَ بنِ عبدِ الرحمنِ غيرُ الفهريّين والقَيْسيين.

حروبُ عبدِ الرحمنِ الداخلِ

أوّلاً: حربُه معَ يوسفَ بنِ عبدِ الرحمنِ:

تنامَتِ الأنباءُ إلى صقرِ قريشٍ أن يوسفَ بنَ عبدِ الرحمنِ قد جمع الناسَ لقتالِهِ بظاهرِ قُرْطبةَ. فجمع عبدُ الرحمنِ الداخلُ أنصارَهُ ونقل إليهم النبأَ، فبايعُوه جميعاً على القتالِ وتحمّسوا له، فزحف إليه بجنودِهِ، ودار القتالُ بين الفريقَيْنِ بظاهرِ قرطبةَ كان النصرُ حليفَ صقرِ قريشٍ، والهزيمةُ ليوسفَ بنِ عبدِ الرحمنِ الذي فرَّ هارباً إلى غرناطةَ فدخلها وتحصَّنَ بها، وأتبَعه الأميرُ صقرُ قريشٍ فنازلَه وجهاً لوجهٍ، فلما رأى يوسفُ بنُ عبدِ الرحمنِ أن الغلبةَ ستكونُ عليه، رغِبَ في الصُّلحِ، وإخمادِ نارِ الحربِ، فوافقه صقرُ قريشٍ، وتمّ الصلحُ بينَهما على أن يسكُنَ يوسفُ قرطبةَ. ولكنّ الشيطانَ أخذَ يوسوسُ ليوسُفَ، ويزينُ له الفتنةَ، ويمنّيهِ بالملكِ والسيادةِ، كما أنَّ بطانةَ السوءِ التي كانت تحيطُ به،

والسيادةِ، كما أنَّ بطانةَ السوءِ التي كانت تحيطُ به، والمنتفعينُ مِنْ كلِّ لون، والانتهازيين وصيادي الفرصِ أخذوا يُوغِرون صدرَ يوسفَ ويدفعونه لنقضِ العهد وتجديدِ القتالِ، فضعُفَ أمام إلحاحِهم وإغراءاتهم، ولحق بطُلَيْطِلةَ، فاجتمع إليه زهاءُ عشرين ألفاً من البربرِ، ومضَى بهم للقاءِ صقرِ قريشٍ الذي أعدَّ العُدّةَ لقتالِه، فلما التقيا كانت الدائرةُ فيها على يوسفَ بنِ عبدِ الرحمنِ الذي فَرَّ بمَنْ مَعَه من أرضِ المعركةِ، ومضَى بعيداً حتى اقترب من طُلَيطلةَ[1]، وفي الطريقِ تمرّدَ عليه بعضُ أصحابِهِ فقتله واحتزَّ رأسَهُ، وحملَهُ هديةً إلى عبدِ الرحمنِ الداخلِ صقرِ قريشٍ. وبمقْتلِ يوسفَ بنِ عبدِ الرحمنِ استقام أمرُ الداخلِ، وثبتتْ أقدامهُ في الملكِ، فتفرَّغَ للإصلاحِ والتحسينِ، وإقامةِ صروحِ الحضارةِ والمدنيّةِ وترسيخِ أمورِ الدولةِ، فبنى المسجدَ الجامعَ والقصرَ العظيمَ بقرطبةَ، وأنفقَ في سبيلِ ذلك ثمانينَ ألفَ دينارٍ...هذا

[1] طليطلة: مدينة كبيرة تقع غربي ثغر الروم وبين الجوف بينها وبين قرطبة سبعة أيام يسير الفارس.

بالإضافةِ إلى مشاريعَ عظيمةٍ وحيويةٍ قام بها وأشرفَ على تنفيذِها، وعمِلَ جاهداً على تمهيدِ دولةِ الأندلُسِ، وتوطيدِ أركانها، وترسيخِ بُنْيانها، وإقامةِ دعائمِها. وتقويةِ ملكِها، وتأثيلِ مجدِها، الأمرُ الذي أكسبَهُ ثقةَ الخاصّةِ والعامّةِ ومحبتَهم، فجعلُوا يَفدون إليه من كلِّ بقاعِ الدولةِ الإسلاميةِ، وهذا رأسُ مالِ المسلمِ في هذه الحياةِ الدنيا حاكماً كان أو محكوماً، فما قيمةُ المرءِ مهما كان وضعُهُ الاجتماعيُّ، وإن كان يتمتّعُ بالعزِّ والجاهِ والمالِ والسلطانِ، ولا يملكُ ثقةَ الناسِ ومحبتَهم...!! وقديماً قالوا: المرءُ قليلٌ بنفسِه، كثيرٌ بإخوانِهِ. وماستحقَّ الحياةَ مَنْ عاشَ لنفسِهِ فقط.

ثانياً: حربُهُ مع العلاءِ بنِ مغيثٍ نائبِ أبي جعفرِ المنصور

خرج العلاءُ بنُ مغيثٍ اليحصُبيُّ من إفريقيةَ إلى الأندلسِ، فنـــزلَ باجة[1] داعياً لأبي جعفر المنصورِ الخليفةِ العباسيّ، فسار إليه عبدُ الرحمنِ الداخلُ فلقيهُ بنواحي إشبيليةَ، فقاتله فغلبه، وهرب العلاءُ بعد أن قتلَ من أصحابه سبعةُ آلافٍ، فبعث عبدُ الرحمنِ الدّاخلُ برؤوسِ كثيرٍ منهم إلى القيروانِ ومكّةَ، فأُلْقيتْ في أسواقِها سراً، ومعها اللواء الأسودُ وكتابُ أبي جعفرَ المنصورِ للعلاءِ بنِ مغيثٍ الذي كانَ قد بعث به إليه يأمُرُه فيه بالتوجّهِ إلى الأندَلُسِ لقتالِ الدّاخلِ، فلما بلغ المنصورَ هزيمةُ نائبِه العلاءِ ارتاعَ له وقال: ماهذا إلا شيطانٌ، والحمدُ للهِ الذي جعلَ بيننا وبينه البحرَ.
وكثُرَتْ ثوراتُ العربِ بالأندلسِ على عبدِ الرّحمنِ الداخلِ، ونافسوه المُلْكَ وأشعلوا البلادَ عليه حَرْباً، وأوقدوها عليه ناراً، فلقيَ منهم حروباً عظيمةً، وخُطوباً جسيمةً، كانت

---

[1] باجة: مدينة كبيرة كثيرة الأنهار وتقع على جبلٍ يقال له عينُ الشمس.

العاقبةُ فيها له، والدائرَةُ عليهم، فاستعمل الحكْمةَ والسياسةَ حتى استطاعَ استمالةَ معظمِ القبائلِ العربيةِ إليه، فغزا بهم بلادَ الإفرنجِ والبُشكَنْسِ ومَنْ وراءهم، فرجع من غَزْوهمِ بالنصرِ والظفرِ. وكانَ قد اصْطدمَ مع كارلوس ملكِ الإفرنجِ في أكثرَ من موقعةٍ، ثم مال معَهُ إلى السّلمِ والموادعةِ وإقامةِ هُدْنةٍ دائمةٍ. هذا... وإنما عُرفَ بالداخلِ، لأنه أولَ مَنْ دخل الأندلسَ من ملوكِ بني مروانَ. وكان أبو جعفرٍ المنصورُ يلقّبُه صقرَ قريشٍ لما فعلَهُ بالأندلسِ، وما ركِب إليها من الأخطارِ، وأنه دخلها من المشرقِ من غيرِ قوّةٍ ولا أنصارٍ، فغلب أهلها على أمرهم، وأخذ منهمُ الملكَ بقوةِ شكيمةٍ، ومضاءِ عزيمةٍ، حتى انقادَ له الأمرُ، وذلّتْ له الصّعابُ، وبات قاهراً لأعدائهِ، حامياً لذمارِهِ، مانعاً لحوزتهِ، خالطاً الرغبةَ إليه بالرهبةِ منه. وكان متواضعاً، يقْعُد للعامَّةِ، ويُصْغي إليهم، ويسمعُ منهم، وينظرُ في أحوالِهم، ولايمنعُ أحداً من الدخولِ عليه، وإيصالِ مَظْلمتهِ إليه.فكان ينصفُ المظلومَ، ويعاقبُ

الظالمَ. وكان من عادتهِ أن يأكلَ مع أفرادِ رعيتهِ من غيرِ تمييزٍ، ومن وافق ذلك من طُلاّبِ الحوائجِ أكل معه بلا خوفٍ ولارهبةٍ. وكان يُسمّى بالأميرِ، وعلى ذلك جرى بنوه من بعدهِ، فلم يُدْعَ أحدٌ منهم بأميرِ المؤمنين تأدّباً إلا ماكان من عَقبهِ عبدِ الرحمنِ الناصرِ الذي سُمّيَ بأميرِ المؤمنين، كما سيأتي في موضعهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

هشامُ بنُ عبدِ الرحمن

هو ابنُ عبدِ الرحمنِ الداخلِ الذي تولّى الملكَ بعده بعهدٍ منه إليْهِ. كان عالماً فاضلاً، تقيّاً وَرِعاً، شُجاعاً غازياً في سبيلِ اللهِ، مُطَبّقاً شرعَ اللهِ، عادلاً بين رعيتهِ، فكان يذهبُ بسيرتهِ مَذْهَبَ عمرَ بنِ عبدِ العزيز وكان يبعثُ بقومٍ من ثقاتهِ في البلادِ فيسألونَ الناسَ عن سيَرِ عُمّالهِ فيخبرونَه بحقائقهِا، فإذا نقلوا إليه مخالفةً أو إساءةً من أحدِهِم، عَزَلَهُ

وحاسبَهُ على إساءتهِ، ولم يستعملْهُ لأمرٍ بعد ذلك. كان يحبُ أعمالَ الخيرِ والفلاحِ والصّلاحِ، وإقامةِ العدلِ بين الناسِ، فمِنْ محاسنهِ وآثارِهِ الباقيةِ إكمالُ بناءِ المسجدِ الجامعِ بقرطبةَ الذي كان أبوهُ شرع فيه فمات قبل إكمالهِ. ومن محاسنهِ: أنه كان يأمرُ وُلاتَهُ بجمعِ أموالِ الزَّكاةِ على الكتابِ والسُّنةِ. وكان أبوه الداخلُ يولّيه في صباهُ ويرشّحُهُ للأمرِ، وكان أبوه كثيراً مايسألُ عنه وعن أخيه سُلْيمانَ، فيذكَرُ له أنَّ هشاماً إذا حضر مجلساً امتلأَ علماً وأدباً وتاريخاً وذكراً لأمورِ الحربِ ومآثرِ الأبطالِ ومواقفِهِم وشَجاعتِهم، ومااأشبَهَ ذلك. وإذا حضر سليمانُ مجلساً امتلأَ سُخفاً وهَذَياناً، فيكبرُ هشامٌ في عينِهِ بمقدارِ مايصغرُ سليمانُ، ذكر يوماً لهشامٍ بيتاً من الشّعرِ، ثم قالَ له: لمنْ هذا الشعرُ...؟ وهو:

ومن خالهِ أومن يزيدَ ومن حُجُرْ وتعرفُ فيه من أبيه شمائلاً

فقال له هشامُ: ياسيّدي لامرِىء القيسِ ملكِ كندة، وكأنه قاله في الأميرِ أعزَّهُ اللهُ. فضَمَّهُ إلى صدرهِ وقَبَّلهُ استحْساناً بما سمع منه، وعَظُمَ في عينيه وأمَرَ له بإحسانٍ وجائزةٍ. ثم أنشدَ سليمانَ البيت على انفرادٍ، ثم قال له: لمنْ هذا الشعرُ...؟ فقال: لعلَّهُ لأحدِ أجْلافِ العربِ، أمالي شغلٌ غيرُ حفظِ أقوالِ بعضِ الأعرابِ...؟ فأطرقَ عبدُ الرحمنِ، وعلمَ قَدْرَ مابينَ ولَدَيْهِ من المزيّةِ والذكاءِ وقوةِ الحفظِ. ولما وصفه زيادُ بنُ عبدِ الرحمن للإمام مالكِ بنِ أنسٍ ﷺ قال: ليتَ أنَّ اللهَ تعالى زيَّنَ موسمنا بمثلِ هذا. وفي أيامهِ فتَحتْ أربونةُ الشهيرةُ[1] واشترط على المعاهدين من أهلِ جلّيقيَّةَ[2]

---

[1] أربونة: بفتح الهمزة وضمها، بلد في طرف الثغر من أرض الأندلس، بينها وبين قرطبة ألف ميل.

[2] جليقية: ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الأندلس في أقصاه من جهة الغرب.

انتقالَ أحمالٍ من ترابِ أربونةَ المفتَتحةِ يحملونَها إلى بابِ قصرِهِ بقرطبةَ. وتحمَّلَ من مخالفيهِ من أقربائِهِ وغيرِهم حروباً كثيرةً، كان النصرُ فيها حليفَهُ، وقصد بلادَ العجمِ في الغربِ غازياً، ثم رجع منها منتصراً مظفراً. وبعث جيوشَهُ بقيادة يوسفَ بنِ بخْتَّةَ إلى جلّيقيَّةَ، فلقي ملكها فرموندو فقاتَله وهزمَهُ، ومضى يُثْخِنُ في العدوّ، ويتوغّلُ في البلادِ. ثم بعث وزيرَه عبدَ الملكِ بنَ عبدِ الواحدِ بنِ مغيثٍ لغزوِ الفرنجةِ، فبلغ ألبةَ والقلاعَ فأثخنَ في نواحيها، ومضى إلى جليّقيّةَ حتى انتهى إلى استُرْقَةَ، فجمع له ملكُ الجلالقةِ كثيراً من الجنودِ، واستعان بملكِ البشكَنسِ، فقاتلهمُ الوزيرُ عبدُ الملكِ، وتصَدّى لهم في أكثرَ من مَوْقعةٍ فكانتِ الحربِ بينه وبينهم سِجالاً، ثم انتهتْ بنصرةِ الوزيرِ عبدِ الملكِ الذي خرج بجنودهِ سالماً ظافراً.ومن محاسِنِ هشامِ بنِ عبدِ الرحمنِ الداخلِ تجديدُ القنطرةِ العظيمةِ التي يُضْرَبَ بها المثلُ بالعظمةِ والفخامةِ، وكانت تلك القنطرةُ بقرطبةَ، وكان قد بناها

السمحُ بنُ مالكٍ الخولانيُّ عاملُ عمرَ بنِ عبدِ العزيز ﵁

فأحكم هشامٌ بناءَها، وأنفق عليها أموالاً طائلةً، وقال يوماً لأحدِ وزرائِه: مايقولُ أهلُ قرطبةَ...؟ فقال: إنَّهم يقولون مابناها الأميرُ إلا ليمضيَ عليها إلى صيدِه وقنصِه. فأقسم هشامٌ أن لايسلكَ عليها أبداً. فوفى بما أقسم عليه، فلم يمرَّ عليه بعد ذلك أبداً.

الحكمُ بنُ هشامٍ
بطلُ معركةِ وادي الحجارةِ

هو الحكمُ بنُ هشامِ بنِ عبدِ الرحمنِ الداخلِ. وَلِيَ الحكمُ بنُ هشامٍ حُكمَ الأندلسِ بعد أبيه هشامِ بنِ عبدِ الرحمن بعهدٍ منه إليه.

صفتهُ:

كان الحكمُ بنُ هشامٍ أسمرَ، طويلاً، أشمَّ، نحيفاً، شجاعاً، ذانجدةٍ ومروءةٍ، وقد رويَ أنه كان أشجعَ بني أميةَ بالأندلسِ، وأشدَّهم إقداماً ونجدةً، وكان يشَبَّهُ بأبي جعفر المنصور من خلفاءِ بني العباسِ في شدةِ الملكِ، وتوطيدِ الدولةِ، وقمعِ الأعداءِ، وإيقاعِ الخوفِ والذُّعرِ في قلوبِهم، الأمرُ الذي جعلهم يتهيّبون لقاءَه،ويخشون مواجهتَهُ ولو من مسافاتٍ بعيدةٍ وشاسعةٍ. ورُوي أنّه أولُ مَنْ جعل للمُلكِ بأرضِ الأندلسِ فخفخةً وأبهَّةً، واتخذ المماليكَ حتى بلغوا خمسةَ آلافٍ، منهم ثلاثةُ آلافِ فارسٍ، وألفا راجلٍ، وهُمُ المدربُّون تدريباً قوياً، والمسلّحون تسليحاً جيداً، وقدِ اتّخَذَهم لنفسِهِ، ولحمايةِ قصرِهِ، بمعنى أنهم حرسُ القصرِ الملكي.

قال ابنُ خلدونَ وغيرُ واحدٍ عنِ الحكمِ بنِ هشامٍ: إنه أولُ مَنْ جنَّدَ الأجنادَ بالأندلسِ، وجمع الأسلحةَ والعدَدَ والمرتزقةَ، واستكثرَ من الخدمِ والحواشي والحشمِ، وارتبط

الخيولَ على بابه، واتّخذَ المماليكَ، وكان يُسمّيهمُ الخرسَ لعُجْمتِهم. ثم قال: وكانت له عيونٌ يطالعونه أحوالَ الناسِ، وكان يباشرُ الأمورَ بنفسِه، ويقرّبُ الفقهاءَ والعلماءَ والصالحين، وهو الذي وطّدَ الملكَ لعقبِه بالأندلسِ. وكان له ألفا فرسٍ مرتبطةٌ على شاطئ النهرِ، محبوسةٌ بجانبِ قصرِهِ للدفاعِ عنه[1].

وكما كان شبيهاً بأبي جعفر المنصورِ ببعضِ الصفاتِ، كان شبيهاً بالحجّاجِ بنِ يوسفَ الثقفيِّ بصفاتٍ أُخْرى، من ظلمٍ وبطشٍ وقَسْوةٍ، ومحاولةِ قتلِ العلماءِ والصّالحين. كما كان يشبهُهُ ببعضِ المواقفِ الطريفةِ والإنسانيةِ، وتجاوبِه مع الحقِ وانصياعهِ إليه.

قال عنه ابنُ حزمٍ: إنّه كان من المجاهرين بالمعاصي، السافكين للدماءِ، ولذلك قام عليه الفقهاءُ والصلحاءُ[1].

---

[1] (١-٢)نفح الطيب.

وقيل: إنه كان يُمسكُ أولادَ الناسِ ويخصيهم، ونُقلتْ عنه أمورٌ، ولعلّهُ تاب منها، واللهُ أعلمُ بحقيقةِ أمرهِ[٢]. ومما عيبَ به أنه قتل الفقيهَ الكبيرَ أبا زكريا يحيى بنَ مضرَ القيسيَّ،وكان قُدْوةً في الدين والورع والاستقامةِ ،سمع من سفيان الثوريّ ومالكِ بنِ أنسٍ. وروى عنه مالكٌ فقال: حدثنا يحيى بنُ مضرٍ عن سفيانَ الثوري أنَّ الطلحَ المنضودَ هو الموزُ. وكان الحكم قد قتل يحيى بنُ مُضَر مع جماعةٍ من العلماءِ وغيرهم، واللهُ أعلم، ذكره المقري التلمساني في نفحِ الطيبِ.

وكان يؤثرُ الفقيهَ زيادَ بنَ عبدِ الرحمنِ الملقّبَ بشيطون، وهو أولُ مَنْ أدخل فقهَ الإمامِ مالكٍ أرضَ الأندلسِ، وكان أهلهُا يدينون بمذهبِ الأوزاعي. يروى أن زيادَ بنَ عبدِ الرحمنِ كان يوماً في مجلسِ الحكمِ وقد غضبَ فيه على أحدِ خُدّامهِ لإيصالهِ إليه كتاباً أغضبهُ، وكرِهَ

---

[٢] نفح الطيب.

وصولَهُ، فأمرَ بقطْعِ يدِهِ، فقال له زيادٌ: أصلَحَ اللهُ الأميرَ، فإنَّ مالكَ بنَ أنسٍ حَدَّثني في خبرٍ رَفَعهُ أنَّ (مَنْ كظَمَ غيظاً يقدرُ على إنفاذِهِ، مَلأَهُ اللهُ تعالى أمناً وأماناً يومَ القيامةِ)[1] فهدَأَتْ نفسُ الحكمِ، وسكَنَ غضبُهُ وقال لزيادٍ: أسألك باللهِ أمالكٌ حَدَّثَكَ بهذا...؟ فقال زيادٌ: نعم، إنَّ مالكاً حدثني بهذا. فأمر الحكمُ بالعفوِ عنِ الخادمِ. وإطلاقِ سراحِهِ، وهذا دليلٌ على إنسانيتهِ وعفوهِ وتسامحِهِ، فقد روي أنه تاب من جميعِ ما نُسِبَ إليه من مخالفةٍ في الدينِ، وقسوةٍ وعصيانٍ، وحَسُنَ حالُهُ، وأخذ يجمعُ العلماءَ والفقهاءَ، ويقربُهم منه، ويستشيرُهم في أمورِ الدينِ والدولةِ، ويستعينُ بآرائِهم، ويجعلُ لهمُ الصدارةَ في مجالسِهِ.

---

(1) موطأ مالك.

عدالةُ الحكمِ بنِ هشامٍ

في السنةِ السابعةِ والتسعين بعد المئة، أو في السنةِ التاسعةِ والتسعين بعد المئةِ، وفي مدةِ حكمِ الحَكمِ بنِ هشامٍ وقَعتْ مجاعةٌ شديدةٌ، أصابَ الناسَ فيها ضنكٌ شديدٌ، وجَهدٌ ومجاعةٌ وفقرٌ، فقام الحكمُ بمبادرةٍ عظيمةٍ وإنسانيةٍ، فجعل يدورُ بنفسِهِ على أهلِ الفقرِ والضنكِ والحاجةِ، ويقومُ بمساعدتِهم ومواساتِهم .الأمرُ الذي جعله يكبرُ في أعينِ الناسِ، وينالُ ثقتهم ومحبتَهم، وثناءَ أهلِ الفضلِ والعلمِ ومدحَهم، منهم عباسُ بنُ ناصحٍ الجزيري الذي قال في مدحِ الحكمِ والثناءِ عليه:

نكِدَ الزمانُ فآمَنَتْ أيامـــهُ	مِنْ أنْ يكونَ بعصرِهِ عُسْرُ
طلع الزمانُ بأزمةٍ فجلا له	تلك الكريهةَ جودُه الغَمْر

ويروى أن نقشَ خاتمِه: (باللهِ يثقُ الحكمُ ويعتصمُ)

قتالُه

أولاً: قتالُه الجلالقة :

منذ وَلِيَ الحَكَمُ الحُكْمَ في الأندلسِ واجهْتهُ أمورٌ صعبةٌ وقاسيةٌ، واستقبلَتْهُ فتنٌ داخليةٌ هدَّدَتْ ملكَهُ، وصَدّعَتْ بنيانَهُ، وفرَّقت جندَهُ، وأقضَتْ مضجعَهُ، وزلزلتِ الأرضَ تحتَ أقدامهِ ذلك أن بعضَ أعمامهِ ثاروا عليه منذ فجرِ ولاديتهِ، وأيدَهم كثيرٌ من الناسِ، وأنضمَّ إليهم بعضُ قادةِ الجيشِ لعزلِهِ عنِ الحكمِ وتوليةِ أحدِ أعمامهِ بدلاً عنه، كما أيّدَهم على ذلك كثيرٌ من العلماءِ والصّالحين الذين نَقَموا عليه بسببِ سُوءِ أخلاقهِ، وعصيانهِ، ومخالفتهِ للدينِ كما تقّدم.

فتصدّى لهم بحزمٍ وقوةٍ وقاتلهم حتى قضى على فتنتِهِمِ، واستأصلَها من جذورِها. فاستغلَّ الجلالقةُ هذه الفتنةَ، وانتهزوها فرصةً للنيلِ من المسلمين وتسليطِ السيوفِ على

رقابِهم، فجمعوا جموعَهم، وعبّؤوا قوتَهم، ثم زحفوا بحدّهم وحديدِهم، وتوجّهوا إلى برشلونَة[1]، لقتالِ المسلمين، وإسقاطِ دولتِهم، والقضاءِ عليهم في الأندلسِ، فاستطاعوا أن يَدْخُلوها، ويُخرجوا المسلمين منها، الأمرُ الذي جعلهم يطمَعُون بغزو بلدٍ آخرَ، كما أنَّ ثمّةَ سبباً آخرَ دعاهُم إلى ذلك، وهو ضعْفُ قوّةِ المسلمين في برشلونةَ، وعدُم استطاعتِهمُ الصمودَ في وجهِ الجلالقةِ، وتأخّرُ وصولِ جيشِ المسلمين من العاصمةِ قرطبةَ، ولكنْ سرعانَ ماتلاشَتْ أحلامهم، وضاعتْ آمالُهم باستردادِ الأندلسِ حين فُوجئوا بجيوشِ المسلمين تزحَفُ إليهم، وتُحدثُ رجةً رهيبةً أفزَعتْهم، وألقتِ الرُّعْبَ في قلوبِهِم، وجعلتهم يفقِدُون كلَّ أملٍ بتثبيتِ أقدامِهم ببرشلونةَ، وغيرِها من بلدانِ الأندلسِ.

---

[1] برشلونة: مدينة معروفة ومشهورة بالأندلس.

لقد زحَفَتْ جيوشُ المسلمين من قرطبةَ بقيادةِ عبدِ الكريمِ بنِ مغيثٍ إلى برشلونةَ فأخرجوا منها الجلالقةَ، وحرّروها من غدرِهم وظلمِهم، وأعادوها إلى ظلِّ الإسلامِ، ورحمةِ أبنائهِ وعدالتِهم، وانطلقُوا يتُابعون فُلولَ الجلالقةِ المنهزمين، وينـــزلون بهمُ الضربَ والقتلَ والأسرَ، ومَضَوْا يتوَغّلون داخلَ بلادِهم، فأثخنوا فيها، وهرب منهمُ العدوّ، فلجأَ إلى أقصى البلادِ بعد أن ذاقَ مرارةَ الهزيمةِ، وألَم التشرّدِ والخيبةِ، ولُقّنَ درساً قاسياً لم يجرؤْ بعده أن يفكّرَ بالهجومِ على المسلمين مرةً أخرى. ورجع عبدُ الكريمِ بنُ مغيثٍ يقودُ جندَ المسلمين إلى قرطبةَ منتصراً مظفّراً بعد أنْ تبع العدوَّ إلى جليقيَّةَ زارعاً الخوفَ والذُّعرَ، والرعبَ والقلقَ في كلِ بقعةٍ دخلها، أو أرضٍ قرَّبها، أو مدينةٍ توغَّلَ فيها.

وهذه صفةُ كلِ مسلمٍ مجاهدٍ في سبيلِ اللهِ حقَ جهادِهِ، متَّبعٍ لسنةِ رسولِهِ ﷺ متمسّكٍ بدينِهِ، عاملٍ على رفعِ لوائِهِ ونشرِ دينِهِ ولو كرهَ الكافرون، وفي ذلك يقولُ رسولُ اللهِ

ﷺ:(نُصِرْتُ بالرّعبِ مسيرةَ شهرٍ) الحديثَ، وهذا الحكمُ يسري على كلِ من تبع رسولَ الله ﷺ في سننِه، وقلّدَهُ في أقوالِه وأفعالِه، وصدقِه وإخلاصِه في جهادِه في سبيلِ الله تعالى.

عظةٌ وعبرةٌ

يُؤْخذُ من هذه الحادثةِ وجوبُ المحافظةِ على الوحدةِ لأنها سببُ القوةِ، وعنوانُ العزّةِ، وسبيلُ النصرِ، وفي ذلك يقولُ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿واعْتَصِموا بحبلِ الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمةَ اللهِ عَلَيْكم إذ كنتم أعداءً فألّفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمتِهِ إخواناً وكنتم على شفا حُفْرَةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبّين اللهُ لكم آياتِهِ لعلكم تهتدون﴾ [1] ولقد أمر اللهُ عز وجل المؤمنين بالمحافظةِ على هذه الوحدةِ، والتمسّكِ بها فإنْ هم تركوها، وفرّطوا بها ضعفُوا وهانوا، وذهبتْ مهابتُهم من قلوبِ

---

[1] لآية ١٠٣ من سورة آل عمران.

عدوهم، قال الله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبُتوا واذكروا اللهَ كثيراً لعلّكم تُفلحون. وأطيعوا اللهَ ورسولَهُ ولا تنازعوا فتَفشَلوا وتذهبَ ريحُكم واصبِروا إنّ اللهَ مع الصابرين ﴾[1] وحين تفرّقَ المسلمون في الأندلسِ، وتآمَرَ بعضُهم على بعضٍ ضَعُفوا في نظرِ عدوِهم، فطمع بهم واعتَدى عليه، ونال منهم، وأخذ مدينةَ برشلونةَ من أيديهم، ثم تطاولَ عليهم ومضى يأخذُ منهم الأندلسَ مدينةً بعد أخرى حتى أخذَها منهم كاملةً، وما حَصَل ذلك إلا بسببِ الضّعفِ والتّفرق، واختلافِ الكَلمةِ، وتآمرِ بعضِهم على بعضٍ، بل باستعانة بعضِهم على بعضٍ بالعدوِ، حتى بلغ بهمُ التمزّقُ أقصاه في عهدِ ملوكِ الطّوائفِ حيثُ انقسمتْ دولةُ الإسلامِ في الأندلسِ إلى إحدى عشرةَ دولةً كانت بدايةً لغروبِ شمسِ الإسلامِ بالأندلسِ، كما سيأتي بيانُهُ في موضِعِه إنْ شاء الله تعالى.

---

[1] الآيتان ٤٥-٤٦ من سورة الأنفال.

ثانياً: قتالهُ أهلَ الرَّبضِ:

كان الحكمُ بنُ هشامٍ في أولِ ولايتهِ فاسقاً عاصياً، عاكفاً على اللهوِ ومخالفةِ الدينِ، منهمكاً في اللعبِ والعبثِ، منغمساً في اللذائذِ والشهواتِ، الأمرُ الذي جعل أهلَ العلمِ والفقهِ والورعِ، وذوي الغَيْرةِ على الدينِ والوطنِ يثورون عليه، ويَخرْجون عن طاعتهِ، ويبايعون غيرَه من ذوي قرابتهِ. وكانوا بالرَّبضِ الغربي من قرطبةَ، وعلى رأسهم الإمامُ يحيى بنُ يحيى الليثيُّ صاحبُ مالكِ بنِ أنسٍ، وأحدُ رواة الموطّأ عنه، والفقيهُ المسمّى بطالوتَ وغيرهما من أهلِ الحلّ والعَقْد، والرأي والحكمِ، فقاتلهُم الحكمُ فغلبهم، وقَضَى على محاولتهم، وهدّمَ بيوتَهم، وجعلهم يفِرّون منه ويلوذون بالبلادِ، فمنهم مَنْ لحق بفاسٍ بالمغربِ، ومنهم من لجأَ إلى الإسكندرية عن طريقِ البحرِ.

ثم تاب الحكمُ من جميعِ ما نُسِبَ إليه من مخالفةٍ وعصيانٍ، وفسوقٍ، رحمه الله تعالى، والحمدُ للهِ رب العالمين.

وقد رويَ أنه لما قضى على فتنة أهلِ الربَضِ، وهدمَ ديارَهم، وظلَّ متمسكاً بالحكمِ قال هذه الأبياتَ:

رأيتُ صدوعَ الأرضِ بالسيفِ راقعاً	وقدْماً لأمْتُ الشعبَ مُذْ كنت يافعاَ
فسائلْ ثغوري هل بها اليومَ ثغـرةٌ	أُبادُرها مُسْتنضيَ السيفَ دارعا[1]
تنبيـكَ أني لم أكـنْ في قراعهـم	بوانٍ وقدماً كنتُ بالسيفِ قارعا[2]
وهل زدتُ أن وفّيتُهم صاعَ قرْضهم	فوافوا منايا قُـدّرتْ ومصـارعا
فهذي بـلادي إنني قـد تركتُـها	مهاداً ولم أتـركْ علـيها منـازعا

ثالثاً: قتالُهُ ملوكَ الفرنجةِ :

حدثت في أيامِ الحَكَمِ بنِ هشامٍ حروبٌ عظيمةٌ وفتنٌ كثيرةٌ، وكان له مع الثوارِ المخالفين له، والخارجين عليه من أهلِ طُليطَلةَ وغيرهمِ، ومع ملوكِ الفرنجةِ والمؤيّدين لهم، والناقمين عليه خاصةً وعلى إقامةِ دولةٍ إسلاميةٍ في الأندلسِ عامةً كان لهم معه معارك كّثيرةٌ، ولذلك استغلَّ هؤلاءِ النّاقمون على الإسلامِ، الحريصونَ على القضاءِ عليه وعلى

---

[1] نصا السيف من غمده: أخرجه.

[2] غيروان: أي غير مهتم ولا محتفلٍ.

أهلِهِ الفتنَ الداخليةَ لتنفيذِ مؤامراتهم، وإخمادِ نارِ حقدِهِم، فسَعَوا جاهدين لشنّ حربِ إبادةٍ تقضي على الأخْضرِ واليابسِ، ولا تذرُ أحداً من المسلمين تقوم له قائمةٌ في الأندلسِ وغيرِها إنِ استطاعوا. فجمع لدريك بنُ كارلوس ملكُ الفرنجةِ جموعَهُ، وعَبّأَ جيوشَهُ ومضى بها إلى حصارِ مدينةِ طرطوشةَ[1]، ولكنَّ العيونَ التي بثَّها الحكمُ في البلادِ كانت منتبهةً لتحركاتِ العدّوِ، ومتيقظةً لها أشدَّ الحذرِ والتيقّظِ، فأرسلوا إلى الحكمِ يعلمونه بتحركاتِ جيوشِ العدوِ، وأنهم يقصِدون الآن مدينةَ طرطوشةَ لحصارِها والقضاءِ على المسلمين فيها، أو إخراجهم منها.

فأمر الحكمُ فوراً بالتجهّزِ للحربِ، والاستعدادِ للرحيلِ لمواجهةِ العدوِ، وخوضِ معركةِ الشرفِ والكرامةِ، والدفاعِ عنِ الإسلامِ والوطنِ والأرضِ والعِرْضِ، فاستجابوا له

---

[1] طرطوشة: مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية، وهي شرقي بلنسيه وقرطبةُ قريبة من البحر متقنة البناء والعمارة مبنية على نهر إبرُه.

وتحمّسوا للدفاعِ عن بلادِهم ودينهم مهما كان الثمنُ باهظاً، ومهما كانتِ التضحيةُ جسيمةً.

ثم أصبح الحكمُ وإذا بين يديه عددٌ كبيرٌ جداً من المتطوّعين والجيشِ، باتوا ينتظرون الإذنَ لهم بالزحفِ للقتال، فجعلَ الحكمُ بنُ هشامٍ وَلَدَهُ عبدَ الرحمنِ أميراً عليهم، فزحفَ بهم إلى طرطوشةَ ليحميها من العدوانِ، فالتقى بلدريكَ ملكِ الفرنجةِ فقاتلَه حتى هزمَهُ ومنعه من الوصولِ إلى تحقيقِ هدفه، ونجتِ المدينةُ، وسلِمَ أهلُها من عاديةِ المعْتدينَ، ومن ظُلْمِ الكَفَرةِ الغاشمين، ورجع عبدُ الرحمنِ بنُ الحكمِ بمَنْ معه من جنودِ المسلمين منتصراً مظفّراً، مزيّناً بأكاليلِ النصرِ والفخارِ، تعلو جبهتهُ العزّةُ والبهاءُ والنّضارة.

هذا... ولم يسكتِ الفرنجةُ على ماأصابهم من هزيمةٍ وخُسْرانٍ ومالحق بهم من ذلٍ وهوانٍ أمام جيشِ عبدِ الرحمنِ بنِ الحكمِ، فأقسموا أن ينتقموا لأنفسِهِم، ويثأروا لهزيمتِهم، ويُلحقوا بالمسلمين القتلَ والأسرَ، والذلَّ والتشردَ، فاستغلوا

مرةً أخرى اشتغالَ الحكمِ بنِ هشامٍ بالخارجين عليه، وأخذوا يعبثون في الثغورِ، ويقتُلون الرجالَ والنساءَ والولدانَ بدونِ تفريقٍ ولاتمييزٍ، ومضوا ينشرون بين بلادِ المسلمين الخوفَ والذعرَ.

فلما بلغَه مايفعلُه هؤلاءِ الفرنجةُ من قتلِ وسبي وإخافةٍ وحرقٍ وتشريدٍ للعزَّلِ والأبرياءِ ترك قتالَ مخالفيه، وسار بنفسِهِ لقتالِ الفرنجةِ وتأديبهم فالتقى بهم فقاتلَهم حتى غلبهم، فهربوا أمامَهُ فلحق بهم، فافتتح الثغورَ، وهدم الحصونَ، وخرَّبَ البيوتَ، وأثخَنَ فيهم القتلَ والسبيَ، وأوقع فيهمُ الخوفَ والذعرَ كما فعلوا هم بالمسلمين، وانتقم منهم أشدَّ الانتقامِ، وشَرَّدهم في الأرضِ، ومزَّقَهم شَرَّ ممزّقٍ،وترك بلادَهم تلتهمُها النيرانُ، ويعبثُ بها الويلُ والدخانُ، ﴿ذلك بما قدَّمَتْ أيديكُم وأنَّ اللهَ ليسَ بظلامٍ للعبيدِ﴾[1].

﴿وما ظلمناهم ولكنْ كانوا هُمُ الظالمين ﴾[2] .

---

[1] الآية ٥١ من سورة الأنفال.

[2] الآية ٧٦ من سورة الزخرف.

لم يكنِ الحكمُ بنُ هشامٍ ليسكتَ على ما فعله الفرنجةُ، ولم يكنْ ليقفَ مكتوفَ الأيدي حيالَ تصرّفاتِهم واعتداءاتِهِم، بل عليه أن يريهم بأسَهُ وشجاعتَهُ، وأنه قادرٌ على أن يردَّ لهم الصاعَ صاعَين، وأن يقابلَ كيدَهم ومكرَهم بكيدٍ أشدَّ، وأعتى ومكرٍ أقوى وأقسى وأمضى، فبعث إليهم من بابِ استعراضِ العضلاتِ جنودَه فجاسوا خلالَ الديارِ، ونقّبوا في البلادِ، ونشروا بين أهلِها الويلَ والخوفَ والقلقَ فخشيَ ملكَ الجلالقةِ أن تمتدَّ أعمالُ المسلمين فتصلَ إليه، فخرج إليهم في جموعٍ عظيمةٍ، وأعدادٍ كثيرةٍ، فتصدّوا له ونازلوه في عدةِ جولاتٍ، وكان القتالُ بينه وبينهم قوياً وضارياً في أيامٍ كثيرةٍ انتهتْ بهزيمةِ الجلالقةِ ونُصْرةِ المسلمين الذين نالوا من عدوّهم نيلاً عظيماً، وأنزلوا في صفوفهِ قتلى كثيرةً لم تقم له بعدها قائمةً، ثم رجعوا إلى بلادهِم منتصرين مظفّرين ظاهرين، والحمد لله رب العالمين.

رابعاً: نخوتهُ وشهامتُهُ وقتاله في وادي الحجارةِ

رغم قتالِ الحكمِ بنِ هشامٍ ملوكَ الفرنجةِ، وتلقينهم دروساً، وتأديبهم كلما حاولوا الإغارةَ على المسلمين، فقد جمعوا قواتِهم، وتسللوا إلى مكانٍ يقالُ له: وادي الحجارةِ، فأغاروا على مَنْ فيه من المسلمين فقتلوا الرجالَ، وخطفوا الأطفالَ، ونهبوا الأموالَ، وسبوا النساءَ، وخلفوا وراءهم آثاراً سيئةً تبعثُ على العظةِ والاعتبار، وتنبئ عن وحشيةِ فاعليها، وقسوةِ قلوبهم، وعدمِ إنسانيتهِم، وأنهم لا يستحقون الرحمةَ والموادعةَ والهدنةَ والسلامَ، لغدرهِم وخيانتِهم، وسوءِ طويتِهم، وبشاعةِ أخلاقِهم.

انتهى العدوانُ الغاشمُ على وادي الحجارةِ وقد ترك وراءَ هُ ما تركَ مِنْ ظُلمٍ وبطْشٍ ووحشيةٍ ولاإنسانيةٍ ما يندى له الجبينُ، وتدْمعُ لرؤيتِه العينُ، ويجعلُ في القلبِ أسىً ولوعةً وحسرةً.

لقد نزل بالوادي رجلٌ يقالُ له: العباسُ الشاعرُ[1] فرأى آثارَ العدوانِ، وأبصرَ القتلى طرحى الأرضِ، والجثثَ

---

(1) لم أهتدِ لاسمِهِ كاملاً.

مّمدَدَةَ هنا وهناك، ونيرانَ الحرائقِ تمدُّ ألستَها كالوحوشِ الضاريةِ لتلتهمَ كلَّ شيءٍ بشراهةٍ فظيعةٍ، ووحشيةٍ بشعةٍ لاتبقي ولاتذرُ، ولا تأتِي على شيءٍ إلا جعلتْهُ كهشيمِ المحتظرِ، فسمع امرأةً تندبُ حظَّها، وتبكي زوجها وولدَها وأخاها، وتستغيثُ بالحكمِ وتقولُ: واغوثاه بك ياحكمُ، لقد أهملتنا حتى كَلِبَ[1] العدوُّ علينا، فأيَّمَنا وأيتَمنا. فدنا منها العباسُ فسألها عن شأنِها، فقالتْ: كنتُ مقبلةً من الباديةِ في رفقةٍ، فخرجَتْ علينا خيلُ العدوّ، فقتلتْ وأسرَتْ، وفعلت بنا ما ترى. فحزن عليها، وأشفق لحالِها، وتألَّمَ لما ألَّمَ بها وأصابَها وقومَها، ولما حَلَّ بهم من مصيبةٍ وشرٍ، وقال وهو يعتصرُ ألماً:

تململتُ في وادي الحجارة مُسْهراً	أراعي نجوماً ما يــردْنَ تغوُّرا
إليكَ أبا العاصي نَضيتُ مَطيتي	تسيرُ بهم سارياً ومُهجـّـرا(٢)
تداركْ نســـاءَ العالمين بنصرةٍ	فإنكَ أحرى أن تغيثَ وتنصُرا

---

[1] كلبَ: أي تكالبَ علينا واعتدى.

[2] أبو العاصي: وهو الحكم بنُ هشام، ونضيتُ مطيتي أتعبْتُها حتى بدت مهزولة، والسارب: المسافر أول النهار، والمهجّرُ: المسافر وقت الهاجرة ، يريد أنه سيمضي إلى أبي العاصي ويتابع سيره بالليل والنهار حتى يجهد مطيته ويتعبها لينقل إليه الخبر.

ثم ودّعَ المرأةَ وغادر واديَ الحجارةِ ميمّماً وجهَهُ شطرَ قرطبةَ ليقصَّ على الحكمِ مارأى، ولينقلَ إليه استغاثةَ المرأة واستجارتَها به. فغضب الحكمُ غضباً شديداً، وثار ثوراناً عظيماً واحمرَّ وجهُهُ، وانتفخَتْ أوداجُهُ، وكأنَّ القصرَ لم يسعهُ مع عظمتِهِ واتّساعه، حتى بدا كالبركانِ يريدُ أن يحرقَ كل ماحولَهُ، وجعل يقولُ: كيف يجرؤ العدوُّ أن يدخلَ أرضي، ويعتديَ على شعبي، ويفعلَ به مافعل...!! واللهِ لأنتقمَنَّ منه، ولأنزلَنَّ به أشدَّ البأسِ والعذابِ ولأثأرَنَّ لكلِ رجلٍ وامرأةٍ وطفلٍ، ولأَرُدَّنَّ له الكيلَ كيلين، والصاعَ صاعين حتى لا يجرؤَ أن يتورطَ بالعدوانِ عليَّ مرةً أخرى.

ثم نادى بالتجهزِ فوراً للخروجِ والاستعدادِ للقتالِ. فتجهَّز له جيشٌ كبيرٌ انطلق تحت قيادته إلى وادي الحجارة، واصطحب معه العباسَ الشاعرَ، فسأل عنِ الخيلِ التي أغارَتْ، ومن أي جهةٍ أقبلَتْ، ومن أيِّ أرضِ العدوِ كانَتْ ...؟ فأخبروه بذلك، فانطلق مباشرةً إليهم، وغزاهم في عُقْرِ دارِهم، وأثخنَ فيهم القتلَ، وفتح الحصونَ، وهدمَ البيوتَ، وخرَّبَ الديارَ، وقتل عدداً كبيراً منهم، وشفى غليلَهُ وانتقمَ

انتقاماً شديداً، وثأر لكلِ مسلمٍ ومسلمةٍ، ورجع إلى وادي الحجارةِ يسوقُ الأسرىِ والغنائم.

ثم أمر بإحضارِ تلك المرأةِ وجميعِ مَنْ أُسرَ له أحدٌ، أو قتلَ له أحدٌ، أو هُدِمَ له منــزلٌ، أو أصيبَ بمصيبةٍ، فأُحْضِروا جميعاً ورفعوا إليه أمورَهم ومظالَمهم. فأمر بإحضارِ الأسرى جميعاً، وأوقفهم أمام أهلِ وادي الحجارةِ، ثم أمرَ بضربِ رقابِهم على مرأىً من الجميعِ، ثم قال للعباسِ الشاعرِ: سَلْها: هل أغاثَها الحكمُ...؟ فقالتِ المرأةُ وكانَتْ شريفةً من أسرةٍ كريمةٍ ونبيلةٍ: واللهِ لقد شفى الصدورَ، وأنكى العدوَّ، وأغاثَ الملهوفَ. ثم دعَتْ له قائلةً: أغاثَهُ اللهُ، وأعزَّهُ ونصرهُ على عدوِهِ، وأطالَ عمَرهُ، ومكّنَ له، وقوّى ملكَهُ. قالت هذا والحكمُ يسمعهُا، ويرى الفرحةَ والسرورَ على وجهِها، والغبطةَ تملأُ قلبَها. فارتاح لقولِها، واطمأنَّ لدعائِها، وبَدَتْ علاماتُ الرضا والسرورِ على وجهِهِ، فقال وهو يخاطبُ العباسَ:

ألم ترَ يا عـــباسُ أني أحبـــبتُها على البعدِ أقتادُ الخميسَ[1] المظفَّرا
فأدركتُ أو طاراً وبرَّدْتُ غلةً ونفَّسْتُ مكروباً وأغنيتُ مُعْسِرا

فقال عباسٌ: نعم، جزاكَ اللهُ خيراً عنِ المسلمين، وأيَّدَكَ بنصرِهِ، وأدام عزَّكَ، وأبقاك ذخراً للإسلامِ، وعوناً للضعفاءِ والمظلومين.

لم يكنِ الحكمُ معتدياً، ولا ناقضاً للعهدِ والميثاق، إنما كان ملتزماً آدابَ الإسلامِ، ومتمسكاً بأحكامِهِ وحدودِهِ، ولكنه حين فوجئ بالعدوانِ على جزءٍ من أرضهِ، أو ثغرٍ من ثغورِ بلادِهِ، انتفض انتفاضَ الأسدِ من عرينِهِ، وانقضَّ انقضاضَ الليثِ في براثنه، ومضى يذيقُ العدوَّ بأسهُ وانتقامَهُ، ذلك أنَّ المسلمَ لايقبلَ الذلَّ والهوانَ، ولايرضى أن تُنْتَهكَ حرماتُ أرضهِ، ومقدساتُ وطنِهِ، ولا يفرطُ بجزءٍ من ترابِهِ، وهو في كلِّ زمانٍ ومكانٍ غيورٌ على دينِهِ وبلادِهِ، فإذا ما تعرَّضَ جزءٌ من بلادِهِ لعدوانٍ امتثلَ أمرَ اللهِ تبارك وتــعالى:
﴿وأعدّوا لهم ماستطعتم من قوةٍ ومن رباطِ الخيلِ ترهبون به عدوَّ اللهِ وعدوَّكم وآخرين من دونِهم لا

---

[1] الخميس: الجيش.

تعلمونَهمُ اللهُ يعلمُهم وما تنفقوا من شيءٍ في سبيلِ اللهِ يُوفَّ إليكم وأنتم لاتُظلَمون ﴾[1] وما فعله الحكمُ من انتقامٍ من الفرنجةِ، وتأديبٍ للمعتدين ما هو إلا امتثالُ قولِ الله تبارك وتعالى: ﴿الذين عاهدْتَ منهم ثم يَنْقضُونَ عهدَهم في كلِ مرةٍ وهم لايتقون. فإمّا تَثْقفهم في الحربِ فشردْ بهم مَنْ خلْفَهم لعلهم يذّكّرون. وإما تخافَنَّ من قومٍ خيانةً فانْبِذْ إليهم على سواءٍ إنَّ اللهَ لايحبُّ الخائنين. ولا يحسَبَنَّ الذين كفروا سبقوا إنهم لا يُعْجِزون﴾[2] صدق الله العظيم.

عبدُ الرحمن بنُ الحكمِ

تُوفِّيَ الحكمُ بنُ هشامٍ بَعد أن وطّدَ أمرَ دولةِ الإسلامِ في الأندلسِ، وقام بحمايتِها، وأدَّبَ الفرنجةَ الطامعين فيها،

[1] الآية ٦٠ من سورة الأنفال.

[2] الآيات ٥٦-٥٩ من سورة الأنفال.

ودوَّخهم، وأنزل بهم أشدَّ البأسِ والعذابِ، وبنى للإسلامِ مجداً مؤثّلاً ، وعزّاً سامياً ولواءً شامخاً أورثَهُ أبناءَه الذينمضَوا على سنتهِ في الدفاعِ عنِ الإسلامِ، ورفعِ لوائهِ عالياً خفاقاً.

وأولُ أبنائهِ عبدُ الرحمن بنُ الحكمِ الذي قام بأمرِ الأندلسِ بعده خيرَ قيامٍ وأتمَّ قيامٍ، وذلك بعهدٍ من أبيه إليه، فبادر عبدُ الرحمنِ لأولِ ولايتهِ بغزوِ بلادِ الفرنجة ليثبتَ لهم جدارتَهُ بحمايةِ دولةِ الإسلامِ، ومقدرتَهُ على ضبطِ أمورها، وتثبيتِ أركانها، والسيرِ على نهجِ أبيه بالقوَّة والحزم، فغزا بلادَهم، وقاد الجيوشَ بنفسهِ، ثم بعثَ نائبَهُ عبدَ الكريمِ بنَ عبدِ الواحدِ فأوغل في بلادِ الفرنجةِ، وفتح كثيرا من الحصونِ، وأكثر فيهمُ القتلَ، فاضطروا أن يصالحوه بدفعِ الجزيةِ، وإطلاقِ أسرى المسلمين، ثم رجع إلى العاصمةِ قرطبةَ بعد أن نشر في بلادِ الفرنجةِ الخوفَ والذعرَ، والرهبةَ والقلقَ، وأثبتَ لهم مقدرتَهُ وكفاءتَهُ بردعِهم وصدّهِم إذا مافكّروا بالهجومِ على دولةِ الإسلامِ. ومع ذلك كانوا يغيرون على المسلمين بين الحينِ والحينِ، حتى إنّ ملكَهم لذريقَ أو لدريك

أغار على مدينةِ سالم، وكانت من أعظمِ مدنِ الثغرِ الأوسطِ وكانتْ في أولِ الأمرِ عاصمةَ هذا الثغرِ قبل طُليطِلةَ، وتقع على بُعْد خمسين ميلاً من وادي الحجارةِ. فسار إليه فرتونُ بنُ موسى بأمرٍ من الأميرِ عبدِ الرحمنِ بنِ الحكمِ، فقاتلهُ وهزمَهُ، وأكثرَ القتلَ والسبيَ والأسرَ في صفوفِ لدريكَ، ثم مضى إلى الحصنِ الذي بناه العدوُّ بالثغرِ نكايةً للمسلمين، فافتتحَهُ وهدَمَهُ. ثم سار الأميرُ عبدُ الرحمنِ بنفسهِ يقودُ الجيوشَ الإسلاميةَ إلى بلادِ جلّيقيّةَ فنشر فيها الخوفَ والذعرَ وافتتح عدةَ حصونٍ، ومضى يتوغلُ في البلادِ، ثم رجع يقودُ الأسرى والغنائمَ. ثم بعثَ ابنهُ محمداً على رأسِ جيشٍ كبيرٍ فاشتبك مع الفرنجةِ في معاركَ كثيرةٍ، وأوقع في صفوفِهم قتلى كثيرةً انتهتْ بمقتلِ غرسِّيةَ وكان من أكبرِ ملوكِهم، وأكثرِهِم شراسةً، وأعظمِهم شجاعةً.

قتالُ النورمان

وفي أيامِ عبدِ الرحمنِ بنِ الحكمِ ظهرتْ أقوامٌ يقالُ لها: النورمانُ، فكانوا يغيرون على المسلمين بالأندلسِ من المنافذِ النهريةِ، وكانوا أقواماً كثيري العددِ، مفرطي الشجاعةِ،

خطرينِ، شديدي المراسِ في القتالِ، وقد سمّاهمُ العربُ بالمجوسِ لأنهم كانوا يشعلون النيرانَ كثيراً، فاعتقد المسلمون أنهم يعبدونها، لذلك سمَّوهم بالمجوسِ. وفي إغاراتِهمُ الكثيرةِ استطاعوا أن يدخلوا مدينةَ إشبيليةَ، ويروّعوا أهلَها، فأرسل إليهمُ الأميرُ عبدُ الرحمنِ الجيوشَ الجرّارةَ، وعليها القادةُ الكرّارةُ، والفرسانُ المهرةُ، فلقيهم النورمانيون، وأظهروا شجاعةً فائقةً، واستبسالاً رائعاً في وجهِ المسلمين للتشبّثِ بإشبيليةَ، وتثبيتِ أقدامِهم فيها، فقابلَهمُ المسلمون بشجاعةٍ أكثرَ، وبسالةٍ أقوى، استطاعوا في النهايةِ وبعد قتالٍ مريرٍ أن يهزموهم ويخرجوهم من إشبيليةِ، ويغنموا منهم مراكبَ بحريةً كثيرةً.

واستمر النورمانيون في هزيمتهِم، حتى بلغوا مدينةَ شَذونةَ[1] فأقاموا حولها أياماً، ثم هجموا على مَنْ فيها وغنموا غنائمَ كثيرةً، ثم تبعتْهمْ جيوشُ المسلمين فأجلتهم عن

[1] شذونة: مدينة بالأندلس من أعمال إشبيلية.

شذونةَ، فهربوا إلى لبلةَ[1]، فأغاروا وسبَوا، ومنها إلى باجةَ، ثم إلى أشبونةَ[2]ثم أقلعوا من أشبونةَ، وانقطعتْ أخبارهم.

وبغزوِ النورمانِ أرضَ الأندلسِ، وانتقالهم من مدينةٍ إلى أخرى، واعتدائهم على أهلِها، وماقاموا به من نهبٍ وسرقةٍ، وقتلٍ واعتداءٍ، ثم خروجهم من الأندلسِ إلى مالايعلمُه أحدٌ دليلٌ على أنهم لم يقصدوا ترويعَ المسلمين، ونشرَ الخوفِ والذعرِ في صفوفهم لهدفٍ سياسيّ، أو لتبييتِ الشرِ لهم، وإخراجهِم من الأندلسِ، وإنما دليلٌ على أنهم قومٌ غزاةٌ، اتخذوا صناعةَ الغزوِ للنهبِ والسرقةِ، وليسوا بفاتحين لانتقالهِم السريعِ، وخروجِهِمُ المفاجئ من المدنِ التي دخلوها. إنهم برأيي رجالٌ أشداءُ همجيون ليس لهم دينٌ يدينون به، أو قانون يمشون عليه، أو نظامٌ يلتزمون به، شأنُهمُ غزوُ البلادِ، والسطوُ والسرقةُ، والنهبُ والسلبُ حيثُ لا قانونَ يردعُ، ولادينَ يجمعُ، ولانظامَ يمنعُ، بل تسيبٌ وفوضى وهمجيةٌ

---

[1] لبلة: مدينة تقع إلى الغرب من قرطبة بينها وبين قرطبة خمسةَ أيام: أربعة وأربعون فرسخاً.

[2] أشبونة: ويقال لها أيضاً: لشبونة، قرية من البحر المحيط، على مصب نهر شنترين إلى البحر.

ووحشيةٌ، أجادوا فنَّ الحروبِ، وتمرَّسوا في القتالِ، وأظهروا شجاعةً فائقةً، وبطولاتٍ خارقةً، واستبسالاً عظيماً لترويعِ الناسِ، وسفك الدماء، وزرعِ الوحشيةِ والفوضى.

عقدُ صلحٍ بين المسلمين وملكِ النرويج

الذي يبدو أن النورمانَ، أو الفيكن، أو المجوسَ كما يسميهمُ المسلمون هُمُ الذين أقاموا لأنفسهِم حكومةً في أيرلندةَ، وسيطروا على جزرِ الأوركينـــز وقد عرفوا بملوكِ البحارِ، واشتهروا بالقَسْوةِ والوحشيةِ، ولم يغزوا بلداً، أو تطأُ أقدامهم موضعَاً إلا أحرقوْا وأبادوا مَنْ فيه، ثم غادروهُ قاعاً صفصفاً، وخلّفوا وراءَهمُ الخرابَ والدمارَ والويلَ والثبورَ، إنَّ مثلَهم في الغربِ كمثلِ التتارِ في الشرقِ في الهمجيةِ والقسوةِ، وحبِ القتلِ وسفكِ الدماءِ، وقد تقدم معنا

مافعلوه في هجماتِهمُ الكثيرةِ على الأندلسِ، وتصدي المسلمين لهم، وردعِهمِ بكلِ حزمٍ وقوةٍ وشجاعةٍ، ولكنَّ غزوَهم للأندلسِ، وقتالهم مع المسلمين لم يقعْ موقعَ الرضا عند تورجزَ ملكِ النرويج الذي كان يرغبُ بإقامةِ علاقةِ صداقةٍ مع مسلمي الأندلسِ لعقدِ اتفاقيةٍ معهم ضدَّ أعدائهِ الدانماركيين الذين ينافسونه على السيطرةِ على البحارِ الشماليةِ.

وبنفسِ الوقتِ كان الأميرُ عبدُ الرحمنِ بنُ الحكمِ يرغبُ كذلك في صداقةِ تورجزَ ملكِ النرويجِ ضدَّ عدوّهما المشتركِ ملك الفرنجةِ شارل الملقّبِ بالأصلعِ، والذي يبدو أن مصالحَ مشتركةً بين المسلمين والنرويجيين تفرض على الفريقين إقامةَ علاقةِ صداقةٍ بينهما، للتصدّي لعدوّهما من جهةٍ، وللتبادلِ التّجاري من جهةٍ أخرى.

ذلك أنّ النرويجيين كانوا بارعين بتجارةِ الفراءِ وغيرِها، فكانوا يطمعون ببيعها للمسلمين مقابلَ شراءِ

خيراتِ الأندلسِ التي كانَتْ أجملَ وأغنى ماتنتجُهُ أوربا كلُّها.
لذلك كان الملكُ تورجز هو أولَ من اتّصَلَ بالأميرِ عبدِ الرحمنِ بأنْ أرسلَ إليه وفدَ صداقةٍ محمّلاً بالتُّحفِ والهدايا، وقدِ استقبلَ عبدُ الرحمنِ الوفدَ الصديقَ استقبالاً عظيماً، وأكرم أعضاءَهُ إكراماً شديداً.

وحين عاد الوفدُ إلى بلادهِ بعث معه عبدُ الرحمنِ شخصيةً هامةً ذات مكانةٍ مرموقةٍ، ومنـــزلةٍ عاليةٍ في الدولةِ الإسلاميةِ، وهو يحيى بنُ الحكمِ البكريّ الجيّاني، وكان يلقّبُ بالغزالِ لجمالهِ، وحسنِ حديثِهِ، وحلاوةِ منطقهِ. وكان يحيى الغزالُ هذا قد أرسِلَ من قبلُ على رأسِ وفدٍ إسلاميّ إلى القسطنطينيةِ، رداً على بعثةٍ بيزنطيةٍ كان قد أرسلها الامبراطور تيوفلس الذي كان يرغبُ بإقامةِ تحالفٍ بينه وبين أميرِ الأندلسِ ضدَّ الخلافةِ العباسيةِ في بغداد.

والذي يعنينا من ذكرِ هذا وذاك أنَّ دولةَ الإسلامِ في الأندلسِ أصبحَ لها شأنٌ كبيرٌ، ودورٌ عظيمٌ وفعّالٌ في أوروبا،

وأنها أضحَتْ سيدةَ البلادِ، وأقواها شكيمةً، وأعظمَها شأناً، كما أنها أصبحَتْ مُهابةً لدى جميعِ جاراتِها من الدولِ الأوربيةِ، وهي التي غزَتْ فرنسا، وإيطاليا وغيرَهما، وأرعبتِ النورمان، أو الفيكن في النرويجِ وأيرلندةَ، وبيزنطةَ واليونان، مّما اضّطرَ هؤلاءِ، وهؤلاءِ لإقامةِ صلحٍ معها، والاستعانةِ بها على عدوّها، وللهِ العزةُ ولرسولِهِ، والحمدُ للهِ ربِ العالمين.

خاتمةُ بالتعريفِ
بعبدِ الرحمن بنِ الحكمِ بن هشامٍ

هو عبدُ الرحمنِ بنُ الحكمِ بنِ هشامِ بنِ عبدِ الرحمنِ الداخلِ، ويعرَفُ بعبدِ الرحمنِ الأوسطِ، لأنَّ الأولَ عبدُ الرحمن الداخل، والثالثَ عبدُ الرحمنِ الناصر .مولدُهُ بطلَيطلَةَ في شعبانَ سنةَ ستٍ وسبعين ومائةٍ من هجرةِ النبيّ ﷺ.كان عالماً بعلومِ الشريعةِ والفلسفةِ، وكانَتْ أيامُهُ أيامَ هدوءٍ

وراحةٍ وسكونٍ، وإنْ حصل فيها بعضُ الحروبِ، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ بالنسبةِ لتلك العصورِ، إلا أنه استطاعَ أن يقضيَ عليها وعلى جميعِ الفتنِ والحوادثِ، ويوطّدَ أركانَ الدولةِ، ويوفّرَ الأمنَ والأمانَ، والسلمَ والسلامَ، والراحةَ والاطمئنانَ، يظهرُ ذلك جلياً واضحاً بتبادلِ السّفاراتِ، وإقامةِ العلاقاتِ مع عددٍ من الدولِ الأوربيةِ.

لقد وفّرَ لرعيتِهِ الحياةَ الآمنةَ، والعيشَ الرغيدَ، فكثُرت الأموالُ عنده ونعم بها أفرادُ الرعيةِ، وقام بخدماتٍ جليلةٍ، وتحسيناتٍ كثيرةٍ كغيرِهِ من الأمراءِ، فاتخذ القصورَ والمتنــزّهاتِ، والمساجدَ والحدائقَ العامةَ، وجَرَّ إليها المياهَ من الجبالِ، وأقام الجسورَ، وزاد في جامعِ قرطبةَ رواقَينِ. وكان نقشُ خاتمِهِ،(عابدُ الرحمنِ بقضاءِ اللهِ راضٍ)، وفي ذلك قال بعضُهم:

خاتمٌ للملكِ أضــحى ... حكمُهُ في الناسِ ماضي

عابــدُ الرحمــنِ فيــه ... بقضـــاء اللهِ راضــي

قيل: إنه أولُ مَنْ أحدثَ هذا النقشَ، وبقيَ وراثةً لِمَنْ بعدَهُ من ولدِهِ. وفي أيامِهِ بَلغَتْ أموالُ الجبايةِ ألفَ ألفِ[1] دينارٍ في السنةِ وكانت قبل ذلك لاتزيدُ على ستمائةِ ألفٍ.

ومن توقيعاتِهِ: مَنْ لم يعرفْ وجهَ طلبِهِ، فالحرمانُ أولى به.

ومن شعرِهِ في الوعظِ والحكمِ قولُهُ:

ولقد تعـــارضُ أوجـــهٌ لأوامرٍ ... فيقودها التوفيقُ نحوَ صوابِها[2]

والشيخ إنْ يحوِ النُّهى بتجاربٍ ... فشبابُ رأي القومِ عند شبابِهَا

وفي زيادتِهِ رواقين في جامعِ قرطبةَ قال أحدُهم:

بنيتَ للهِ خيرَ بيـــتٍ ... يخرَسُ عن وصفِهِ الأنامُ

حجٌّ إليه بكـــلِ أوبٍ ... كأنه المسجـــدُ الحرامُ

كأنَّ محرابَـــهُ إذا ما ... حُفَّ به الركنُ والمقام

وقال آخرُ:

---

[1] ألفُ ألفٍ: أي مليون دينار.

[2] تعارضُ: الأصل تتعارض، فحذفت إحدى التاءين للتخفيف.

بنى مسجداً لله لم يكُ مثلُه ولامثلُه لله في الأرضِ مسجدُ
سوى ماابتنى الرحمنُ والمسجد الذي بناهُ نبيُّ المسلمين محمدُ
له عُمدٌ حُمرٌ وخُضرٌ كأنما تلوحُ بواقيتٌ بها وزبرجَدُ
ألا ياأمين الله لازلت سالماً ولازلت في كلِ الأمورِ تسدَّدُ
فياليتنا نفديكَ من كلِ حادثٍ وأنك للدنيا وللدينِ تخلُدُ

وكان رحمه الله تعالى كثيرَ الميلِ للنساءِ، والشّغف بهنَّ، أحبَّ جاريةً اسمُها مدثرة فأعتقها وتزوجها، وأخرى كذلك اسمُها الشفاء، وكان له جاريةٌ اسمُها قلم، فكانت أديبةً، حسنةَ الحظّ، راويةً للشعرِ، حافظةً للأخبارِ، عالمةً بضروبِ الأدبِ.

وكان مولَعاً بالسماعِ، مُؤثراً له على جميعِ لذاتِه، وله أخبارٌ أخرى كثيرةٌ. ومن أكثرِ جواريه حباً، جاريةٌ يقالُ له: طروب، وهام بحبِها كثيراً، وكلِفَ بها كلفاً شديداً، وأعطاها حُلياً قيمتُهُ مائةُ ألفِ دينارٍ. فقيلَ له: إنَّ مثلَ هذا لا ينبغي أنْ يخرجَ من خزانةِ الملكِ فقال: إنَّ لابسَهُ أنفسُ منه خطراً، وأرفعُ قدراً، وأكرمُ جوهراً، وأشرفُ عنصراً. وفيها يقولُ:

إذا ما بَدَتْ لي شمسُ النها ر طالعةً ذكّرتْــني طَروبــا
أنا ابنُ الميامينِ من غالبٍ أشبُّ حروباً وأُطفي حروبا

وخرج غازياً إلى جلّيقيَّةَ فطالَتْ غيبتُهُ، فاشتاق إليها فقال هذه الأبياتَ:

عَدانِي عنكِ مــزارُ العــدا وقَودي إليهم سهاماً مصيبا
فكم قد تخطَّيتُ من سَبْسَبٍ ولاقيتُ بعد دروبٍ دروبــا
أُلاقي بوجهي سُمومَ الهجــيرِ إذا كاد منه الحصى أن يذوبا
تدارکَ بي اللهُ دينَ الهُـــوى فأحييتُهُ وأمــتُّ الصــليــبا
وسِرتُ إلى الشركِ في جحفلٍ مَلأْتُ الحزونَ به والسُّهوبا[1]

رويَ أنه أغضبها يوماً، فهجرتْهُ وصَدَّتْ عنه، وأبَتْ أن تأتيَه، ولزمَتْ مقصورتَها، فاشتدَّ قلقُهُ لهجرِها، وضاق ذرعُهُ من شوقِها، وجهِدَ أن يترضاها بكلِ وجهٍ فأعياه ذلك، فأرسلَ إليها مَنْ يكرِهُها على الوصولِ إليه. فأغلقَتْ بابَ مقصورتِها في وجوهِهم، وأبَتْ أن تخرجَ إليه معهم ولو انتهى بها الأمرُ إلى القتلِ. فانصرفوا إليه وأخبروه بقولِها، واستأذنوه

---

[1] الحزون، جمع حزن وهو ماغلظ من الأرض.

في كسرِ البابِ عليها، فنهاهم وأمَرَهم بسدِّ البابِ عليها من خارجِهِ ببِدَرِ الدراهم، ففعلوا، فأقبل حتى وقف بالبابِ، وأخذ يكلمُها ويسترضيها راغباً في المراجعةِ على أنَّ لها جميعَ ماسُدَّ به البابُ. فأجابَتْ لذلك وفتحتِ البابَ، فانهالَتْ بِدَرُ الدنانيرِ في غرفتِها، فأكبَّتْ على رجلِهِ تقبلُها، وحازتِ المالَ، فسبحان مَنْ جعل قلوبَ العبادِ بين أُصبعين من أصابعهِ يقلبها كما يشاءُ... فهي التي أحبها، وتعلَّقَ قلبُه بحبهِا من دونِ سائرِ نسائهِ وجواريه، هذا ...ورسولُ اللهِ ﷺ كان يعدلُ بين نسائِهِ التسعِ ولكنَّ قلبَهُ يميلُ إلى عائشةَ (رضي الله عنها) وأرضاها، فكان يعتذرُ إلى اللهِ تعالى من ذلك ويقولُ: اللهم هذا قسمي فيما أملكُ، فلا تؤاخذْني فيما تملكُ ولا أملكُ.

(ربَنا لا تؤاخِذْنا إن نسينا أو أخطأنا ربَّنا ولا تحملْ علينا إصراً كما حملتَهُ على الذين من قبلنِا ربَنا ولاتُحمّلْنا مالا طاقةَ لنا به واعفُ عنّا واغفِرْ لنا وارحمْنا أنتَ مولانا فانصُرْنا على القومِ الكافرين).

(ربنا لاتُزِغْ قلوبَنا بعد إذ هديتَنا وهَبْ لنا من لدُنْكَ رحمةً إنكَ أنتَ الوهاب)...

صدق اللهُ العظيم.

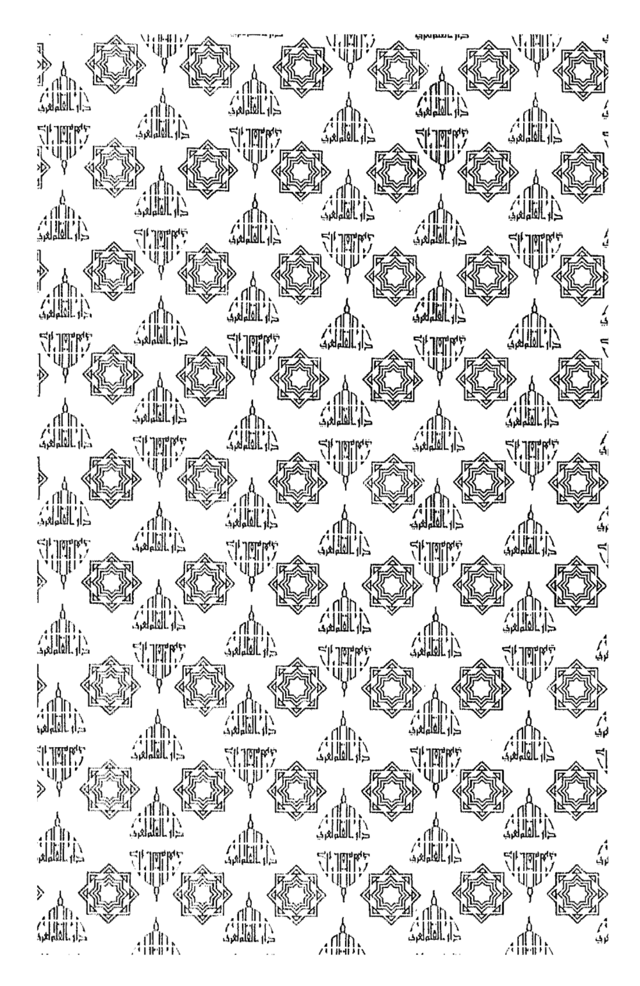
وصلى الله على سيدنا محمدٍ
وعلى آلهِ وصحبِهِ أجمعين.
تمتِ الرسالةُ والحمد للهِ ربِ العالمين
وإلى اللقاء مع معركةٍ أخرى من معاركَ إسلاميةٍ خالدةٍ

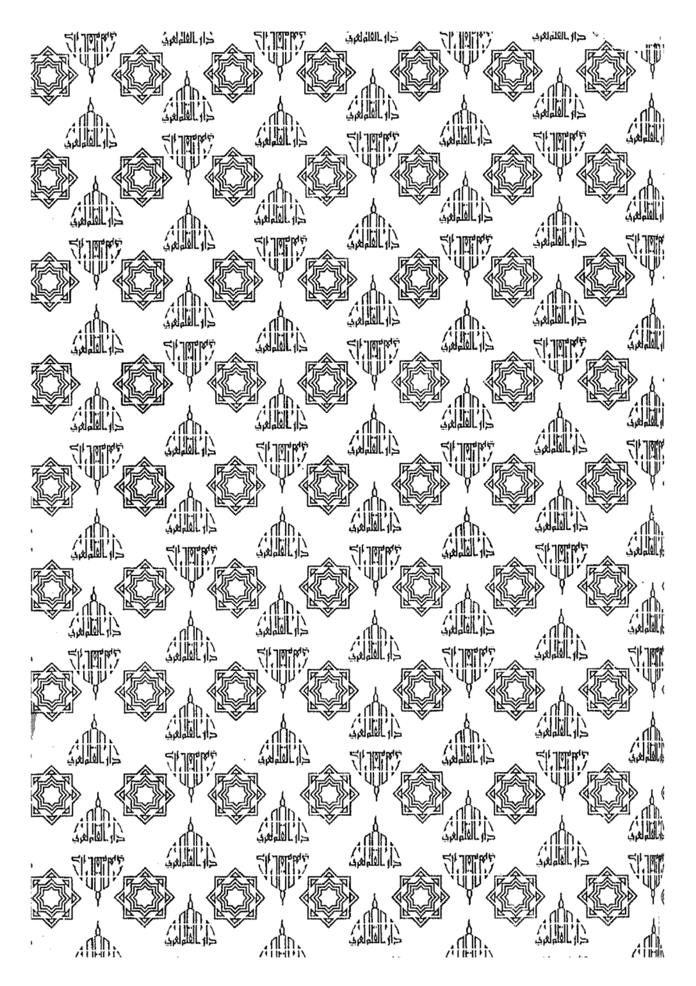
الفهرس

رقم الصفحة

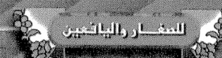
رقم الصفحة

رقم الصفحة




دار القلم العربي

معارك عربية إسلامية خالدة



لم تكن الحربُ لدى العرب المسلمين غايةً لذاتها ، وإنّما كانت لردّ العدوان ولدرء
الأخطار ، ولإزاحة أولئك الذين يقفون في وجه الدعوة ويحولون دو
وهي معارك تشمل على بطولات وتضحيات وجود بالنفس (والجودُ
غاية الجود).

ودار القلم العربي للأطفال بحلب - إذ تنشر هذه الكتب - إنما تسعى
نفوس الأبناء حبَّ التضحيةِ والفداءِ ، وحبَّ آبائهم الذين بذلوا دماء
شامخةً لايدنّسها مستعمرٌ غاشم.

والله من وراء القصد

الناشر



I.S.B.N: 1 - 5050 - 3

